

« لَكُنْ مُحَمَّدًا لَا يُوَاكِبُ لَهُ »

العارف

المسؤول يعاهد في مصر، ونحوه نأتموه

« لَكُنَّ مُحَمَّدًا لَا يُوَاكِي لَه »

العار!

الرسول يهان في مصر، ونحك نائمون

هتك الأستار عن خفايا كتاب، فترة التكوين في حياة الصادق الأمين،

د. إبراهيم عوض

دار الفكر العربي

٩٤ عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م



من قلب طعين

كنت ، أثناء مطالعتي لكتاب « فترة التكوين في حياة الصادق الأمين » ، أحس أن أحدهم يطعنني بسكين محمّاة في قلبي حتى نفوس فيه إلى مقبضها ثم يتزعها بوحشية ليعيد الطعن بوحشية أشدّ. ذلك أن الكتاب من أوله إلى آخره إهانة لسيد البشر صلى الله عليه وسلم واستهزاء شديد به لا أظن أن مصرنا الحبيبة أو أى بلد إسلامي آخر قد شهد له مثيلا من قبل . وإني للذهل غاية الذهول من هذه الوقاحة في الإقدام على إهانة النبي عليه السلام في بلد مسلم كمصر يتصدى لأعداء الإسلام بمسألة منذ قرون ويدحرهم واحداً تلو الآخر بدءاً بالصلبيين ، ومروراً بالتتار ، وانتهاءً بالاستعمار الحديث ومن يمشى في ركابه من مستشرقين ومبشرين . فكيف وصل الحال إذن إلى أن يصدر في أرض الكنانة مثل هذا الكتاب المجرم ثم لا تنتفض الأمة على بكرة أبيها ؟

أين الكرامة ؟ أين العزّة ؟ أين حينا لتبيننا وديننا ؟ ماذا سنقول لربنا غدا إذا وقفنا أمامه وسألنا : كيف رضيتم أن يهان رسولي على مرأى منكم ومسمع ثم لا تحركون ساكنا ؟ عفوك اللهم وغفرانك !

ومعذرة يا رسول الله أن تناولت عليك الكلاب والخنازير ، وأمتك
نائمة في العسل بل في مياه المجارى مشغولة ببطونها وفرجها ولهوها
السخيف ! لو أننى أعيش فى عصرِكَ لأكببتُ على قدميك أغسلهما
بدموع الندم ولمرغتُ وجهى فى التراب الذى تمشى عليه قدمك
الشريفة، ولكننى مغلول اليد لا أستطيع إلا أن أكتب وأرّد وأنبّه
الغافلين لعلهم يستيقظون !

إن المسألة ليست مسألة إيمان وكفر أو حرية عقيدة وتعبير ،
فلست أمارى فى أن كل إنسان حرّ فى أن يؤمن بما يشاء وكفر بما
يشاء ، بل المسألة مسألة سفاهة وبذاءة وقلة أدب ورغبة فى إهانة
رسولنا الأكرم ، وهو ما لا يطيقه أى مسلم بل أى إنسان حرّ نبيل أيا
كان الدين الذى ينتمى إليه . وأنا هنا أتوجه بالاستغاثة إلى كل
المسؤولين فى الدولة ، وإلى النائب العام وشيخ الأزهر ورئيس الجامعة
الأزهرية وأعضاء مجمع البحوث الإسلامية ونواب الأمة فى مجلسي
الشعب والشورى ، وإلى كل الأدباء والمفكرين والكتاب والصحفيين
الشرفاء الذين يحبون رسولهم متساويًا : كيف طاولتكم ضمائركم
على السكوت على هذا العار ؟ أو قد صار محمد رخيصا إلى هنا
الحد ؟ أو قد أضحي صلى الله عليه وسلم كلاً مستباحاً لا يجد من

يدفع عنه العدوان ؟ إننى لا أكاد أصدق هذا الذى جرى ، وأهون
على أن أصدق أن السماء قد انطبقت على الأرض !

أبام أن كانت هناك بقية من نخوة وعزة كان هناك من يكتب
كتابا عنوانه « الصارم المسلول على شاتم الرسول » ، أما الآن
فيا للمخزى والمهانة ، إذ كل ما نستطيع أن نؤلفه هو كتاب بعنوان
« لكن محمدا لا يواكبي له ا » . لقد استوحيت هذا العنوان من
عبارة الرسول العظيم التى قالها غيب انكساره أحد حين رأى نساء
المسلمين آخر النهار يمين الشهداء ، إلا حمزة فلم يكن يمينه أحد ،
فقال عليه السلام متوجعا : « لكن حمزة لا يواكبي له ا » ، فعندئذ
بكته الباكيات أحرى بكاء ، فيا ترى هل هناك من سيبكى للرسول
والإهانات التى وجهت إليه ويثبت أن أرض الكنانة ما زالت خصبة
تنبت الكرام الأحرار ؟

الرد على كتاب «فترة التكوين»

الرد على كتاب « فترة التكوين »

منذ فترة ليست بالقصيرة أخذ الشك يحيك في صدرى تجاه الكتب التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » وتهاجم الله والرسول والصحابة والإسلام مهاجمة شرسة لا تستند إلى أية أسس سليمة بل تنطلق من غلّ متلفّظ لا يهدأ له أوار . لقد كان الرجل إلى أوائل الثمانينات مجرد محام لا يعرفه أحد غير أقاربه وأصدقائه وموكليه تقريباً ، ثم شرعت بعض الصحف اليسارية تنشر له المقالات والأحاديث التى تلمز الإسلام من طرفٍ خفى ، وإن زعم صاحبها أنه إنما يدافع عن دين الله ويجلو وجهه الصحيح . ولست أعرف للرجل قبل ذلك أى إسهام فى مجال الفكر والكتابة ، فكيف يمكن أن تظهر فيه موهبة التأليف هذا الظهور المفاجئ بعد أن أصبح شيخاً ؟ أليكون النبوغ قد هبط عليه دون سابق إنذار كما حدث مع النابغة الذبياني والنابغة الجعدي والنابغة الشيباني ، الذين تقول الروايات عنهم إنهم لم يبدأوا قرض الشعر إلا بعد أن تقدموا فى السن ؟ لكن هل من السهل ابتلاع هذه الفرضية فى حالة خليل عبد الكريم ، وبخاصة أن مقالاته التى ولج بها عالم التأليف ليست لها قيمة تذكر

لا فى أسلوبها ولا فى مضمونها ولا فى نتائجها المعكرو ، إذ يستطيع أن يكتب مثلها أى إنسان يمكنه أن يتناول القلم ويحرره على الورق ، ثم انقلب الحال فجأة ككرة أخرى وأخذت تصدر باسمه كتب أسلوبها مختلف تماما عن الأسلوب السابق الذى لا يتميز بأى شىء يلفت الأبصار ، كما أنها مخدومة من ناحية المصادر والمراجع ، وفيها طنطنة وغرور مدويان ؟

هذه مسألة يصعب جدا جدا هضمها ، فالمعروف أن الخصائص الأسلوبية لأى كاتب لا تتحول هذا التحول السريع الحاد الذى يتفصل فيه الحاضر عن الماضى تماما بحيث لا يصدق الناقد الأدبى أن هذا الأسلوب الجديد هو لصاحب ذلك الأسلوب القديم نفسه .

والأسلوب الجديد الذى صيغت به المؤلفات التى تحمل اسم «خليل عبد الكريم» بأحره هو أسلوب بلغ العاية التى لا غاية بعدها فى الحذقة السمجة الثقيلة : فهو يمتج ، وبخاصة فى الكتاب الأخير الذى نحن بصددده ها : «فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين»^(١) ، بمئات الألفاظ والصيغ الميتة التى لا تكاد تفارق بطون المعاجم والتى

(١) ط ميرييت للنشر والمعلومات / ٢٠٠١ م . ويقع فى نحو ٤٢٠ صفحة

لم يكن الشعراء القدامى أنفسهم يستعملونها إلا فى البدرة الشديدة .
كذلك يحرص صاحب هذه الكتابات على التفاسيح بكثرة الجمل
والعبارات المترادفة التى لا تضيف جديداً إلى ما تقوله الجملة أو العبارة
الأولى . إن الترادف فى يد الكاتب البليغ يزيده المعنى وضوحاً
والانفعال حرارة بل التهايا ، أما فى حالة الكتب المذكور عليها اسم
« خليل عبد الكريم » فهو ترادف قلجى خائق . ويدولى أن هذه
الكتب ، بعد أن يتم تأليفها كسائر الكتب التى يؤلفها عباد الله ،
يُعهد بها إلى شخص آخر يتولى تحية الكلمات البسيطة والصيغ
الشائعة ويضع مكانها الأوابد والشوارد اللغوية التى لا توجد حتى فى
كتابات الأدباء المشهورين بتكيب العادى من الأساليب كمبد الحميد
الكاتب وابن المقفع والجاحظ وابن العميد والمنفلوطى والرافعى مثلاً ،
إذ إن هذا التنكب من جانب أولئك الكتاب إنما هو منزع طبيعى
عندهم ، أما فى الكتب التى تُسبب إلى خليل عبد الكريم فهو أمر لا
أظنه إلا مصنوعاً صناعاً ويتم ، كما قلت ، فى مرحلة تالية بعد
التأليف تمحّص فيها معاجم اللغة الخاصة بالمترادفات والمتضادات وما
أشبهه .

ولست أحسب أحداً يمكن أن يخطر بباله أن خليل

عبد الكريم من العلم باللغة وغيرها إلى هذا الحد . إن ثقافة الرجل المعروفة وكتابه السابقة ترفض خطوط هذا الفرض على البال وقصا قاطعا باتا ، فهو ليس رؤية بن المعاج ولا أبا العلاء المعري ولا بديع الزمان الهمداني ولا الحريري بل هو هو . ويزيدني ثقة بهذا الحكم أن الكتب المعزوة إليه تعانى من كثرة الأخطاء النحوية والصرفية ومن ركازة الأسلوب وعم ما هو معروف من خضوعها للتصحيح اللغوي في المطبعة . فكيف بالله يستقيم فى العقل أن يجتمع فى شخص واحد كل هذه المعرفة بغريب الألفاظ والصيغ وذلك الجهل بأصول النحو والصرف ؟ ومن ثم فإننى أرى أن هناك أكثر من يد تشترك فى تأليف هذه الكتب . وبالسبب للكتاب الأخير بالذات فإننى أستبعد أشد الاستبعاد أن يكون مؤلفه مسلما ولو بالاسم ، إذ فيه من الإساءة الجارحة للنبي ومن التفسيرات العجيبة لتبوءه صلى الله عليه وسلم ما لا يمكن صدوره إلا من مبشر متعصب مطموس البصر والبصيرة ، وهو ما عرضنا الأدلة عليه فى الصفحات التى بين يدي القارئ الكريم . ونرجو ألا تكون مخطئين !

ومن الأمثلة على التحذلق بالأرايد اللغوية فى الكتاب المذكور

هذه الكلمات الثلاث التي جعلها المؤلف عاوين لبعض فصوله ،
وهي « قِيدَام » ، التي لا يعرفها إلا من جعل هَمَّ التنقيب في كتب
غريب اللغة . والمقصود البني الذي كان العرب وأهل الكتاب ينتظرون
مقدمه . وهو جهل وتحليط مبين ، إذ « القيدام » هو « القُدَام » لا
« القدام المنتظر » كما أرادت به حذقة الكاتب البعيضة التي طمست
على بصيره وبصره فحذف اللفظ الصحيح واستعمله بدلا منه

ثم « الهِنْدُوْز » ، التي لا أدري أي شيطان سحيف نفث في رُوع
مَنْ جَلَّيْهَا إلى الكتاب . وقد أبى الله إلا أن يفضح جهل جالبها
الذي أخذ يتعالم علينا قائلا إنها تأخذ صيغة واحدة للمذكر والمؤنث
على السواء . لماذا ؟ لأنها ، كما قال ، مثل « نَشُور » و « قُرُوج » ،
اللتين لا تدخل عليهما تاء تأنيث في حالة استخدامهما وصفاً
للمؤنث . أرايت جهلاً مثل هذا الجهل ؟ ترى ما علاقة « هِنْدُوْز »
(ورنها الصرفي « فَعْلُول ») بـ « نَشُور » و « قُرُوج » (ورنَّهَما
« فَعُول ») ؟ إن المتحذلق الجاهل يريد الإشارة إلى ما نقوله كتب
الصراف من أن أية صفة على ورن « فَعُول » بمعنى « فاعل » لا
تأخذ عند التأنيث « تاء » بل تُكْتَب بنفس الصيغة تدكيرا وتأنيثا
فبإلله ما دخل « هِنْدُوْز » في هذه القاعدة ؟ ثم يأتي الله إلا أن

يكشف سواءً ذلك المتحذلق ثانية حين علق بأنه لهذا السبب « يقدو
وصفُ سيدة نساء الأرض بـ « الهندوز » لا « الهندوزة » صحيح »^(١) ،
إذ رفع كلمة « صحيح » رغم أنها حالاً حقها النصب وعلى كُلِّ
فصحة « الهندوز » هنا هي « الهندوزة » بالنساء رغم أنف الجهل
المتطلع^(٢) .

والمقصود بـ « الهندوزة » السيدة خديجة رضى الله عنها
وأرضائها ، التى يزعم من يحترقون من أهل التبشير علماً وحققاً على
الإسلام بسبب ما قصم من ظهر دينهم وقضخ عوراته القائلة أنها هي
التى « التقطت » محمداً عليه السلام وهدرته وجعلت منه نبيا بعد
أن كان رجلاً خامساً لا ثقافة لديه ولا خبيرة له بالحياة ولا بالناس

(١) من ١٠٩ .

(٢) ومثلها فى ذلك « الهلوف » (الكذب) و « الهلوفة » ، و « البردون » (العرس
غير الأصيل) و « البردونة » ، و « السنوز » (القط) و « السورة » ،
و « الجنوص » (ولد الخنزير) و « الجنوصة » الخ وكلها ، كما ترى ،
تدخل عليها تاء التأنيث . وقال للمرأة الصخنة المرتجة الأرداف « هرْكولة »
بناء التأنيث أيضاً ، وقد تكررت فى الشعر الجاهلى ، ومنها قول الأعشى
« هرْكولة فحقَّ حرم مراقبها » .

وأفكارهم ومعتقداتهم ! ولكن هل راعى المنحذلق القاعدة الصرفية التى أُلح إليها ؟ أبداً ، فهذا هو ذا يُدخِل على صيغة « فَعُول » (بمعنى « فاعل ») ناءً فى حالة التأنيث فى العبارة التالية المتفهبقة الثقيلة : « ولو أنهم قرأوها قراءة مستأنية ، وطالعوها مطالعة صَبُورَة ، ودرسوها على ريثٍ ، ولَبَدُوا بين صفحاتها ولم يَقْرَؤوها لما كانت بهم حاجة لطرح تلك الفكرة الحائبة ، فإن الأمر أهون من ذلك ، ولا يحتاج إلى هذا التمحلل ، ولا يستدعى ذلك التكلف ، ولا يستتفر ذلك الاصطناع ... » إلى آخر هذا السيلان الخاطي ^(١) .

أما العنوان الثالث فهو كلمة « اليسوب » ، التى من معانيها فى الاستعمالات القديمة المطمورة فى طيات المعاجم « الرئيس الكبير » كما يقول من اختار هذه الكلمة عنواناً لأحد فصول الكتاب ، جاهلاً أنها إذا استعملت الآن (وهى لا تستعمل إلا فى علم « الأحياء » عند الحديث عن النحل وعمله) فلا تعنى إلا « ملكة النحل » . وملكة النحل هى بطبيعة الحال أنثى ، وإن ظن العرب القدماء أنها ذَكَرٌ لضعفاتها كما جاء فى « المعجم الوسيط » . ولهذا السبب لم

يفسرها « المعجم العربى الأساسى » مثلا إلا بأنها أنشئ النحل التى
تبيض . أى أن الكلمة هى ، فى الواقع ، للأنثى لا للذكر ، لكن
التعالم العى يوقع صاحبه فى المزالق والمهالك ، فقد لقّب بها جالبها
إلى الكتاب ورقة ابن نوفل لأنه ، حسب إفكه ، هو الذى تولى كبر
تنقيف محمد عليه السلام أو « قلوّته وصنّفه وتلصّبه » بميّة
« تصنيعه » نبيا (وهذه هى ألفاظ المبشر الحقود الذى وراء ذلك
الكتاب) . والحق أن هذا المبشر (لا ورقة) هو « اليحسوب » ، فقد
كان ورقة رجلا شريفا نبّيلا عتّا للحق عندما استبان له أن محمدا نبى
من عند رب العالمين فأمن به وأعلنها مدوّية ، وهو الشيخ الطاهن فى
السن ، أنه إن امتد به العمر فسوف ينصره ويؤازره ضدّ سفهاء قومه
الذين سيكذبونه ويؤذونه ، ولم يكن كهؤلاء المبشرين الذين يلبق تماما
بهم أن يُسمّى الواحد منهم « يحسوبا » بلغة العلم الدقيقة ! لقد
كانت العرب نظنّ ، ولها عذرها من قلة العلم آنذاك ، أن اليحسوب
هو ذكر الحبل الذى يساعد إناته ، على حين أن اليحسوب هى ، هى
واقع الأمر وحقيقته ، الأنثى التى يطرقها كل الذكور ولا عزاء
ليعاصيب التبشير !

ومن الأمثلة الأخرى على تباصره السمج بالغريب استعماله صيغة

«الضُرُوب» بدل «الضُرْب» (بمعنى « الشبيه » في قولنا : « فلان لا ضريب له »)^(١) . وهو استعمال خاطئ يدل على أن الآخر أعمى البصر والبصيرة كما سلف القول ، ويتصدى لما لا يحسن . وليس أسحف ولا أسمع ولا أعث ولا أبرد من قلتم جهول يتعالم على عباد الله ولا يلزم حدوده فيتصرف على قدر حجمه الشَّخْت الضئيل ، إذ «الضُرُوب» هو «الكثير الضرب» (سواء الضرب المعروف أو غيره) ويدو أن كاتبها المستخفي كان ، وهو يستعملها ، يتقلقل مهتاجاً طالباً « ضروباً » حتى يهدأ ويسكن . كذلك أضحكى غرام البشر المستخفي بتريد كلمة «النسوان» (التي أسقط ألفها في عشرات المواضع وجعلها «سُون» ، ولا أدري أى خَبَل أصابه فجعله يلزق في هذه وترك تلك) ، وكذلك كلمة «المرة» بدل « المرأة » أو «السيدة» كما يقول المهذبون الأفاضل وهو ما يذكّرني بشيوعي سافل جمععتني به الظروف في السبعينات مرة أو مرتين فألقيته كلما جاء ذكر سيده كريمة قال : «المرة» ، فأقصيت باستغرابي لبعض من كانوا معاً وسألتهم عن السبب في إكثاره من تريد هذه الكلمة ،

(١) ص ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١٥ مثلاً .

فانبرى أحد الحاضرين ، وكان ظريفا لبقا ، فقال : « لأن البعيد مرة
ابن مرة ، ويؤتى من ... » ، فأخذت بهذا الرد الذى لم يكن لى فى
حسبان ، وظننت أنه قد تجاوز المدى جريا وراء السجعة ، وكم
للسجاعم من تجاوزات ، بيد أن جاره سارع إلى طمأننتى قائلا : « لا
تزع . إنه يسجع ، لكنه لا يقول إلا حقا . فالأبعد «مفعول فيه» كما
يقول النحاة » ، وهو ما أكدته الحاضرون جميعا ، ومنهم الشيوعى ،
ومنهم ذو الدين ، ومنهم من لا يهتم بشيوعية ولا دين ، فعرفت أن
الأمر كما قال .

ومن الحذقة الثقة الباردة أيضا قولُ المبشر المستخفى عن الأنظار:
« من المبال أن يتصف المنتظر (أى النسي المنتظر) بأنه مهتلّس العقل
أو هجزع أو ذو زعارة »^(١) . والله لا مهتلّس عقل أو هجزعا ذا زعارة
إلا هذا الأزعر وأمثاله ! وقد قلت : « الأزعر » عن عمد جريا على
أسلوب إخواننا اللبنانيين الذين صدر فى بلادهم منذ سنوات كتاب له
صلة بالكتاب الذى بين أيدينا مما سيأتى خبره بعد قليل ، وذلك حتى
تكون الألفاظ مناسبة لسياقها ، فقديمًا قال أهل البلاغة إن لكل مقام

مقالا . وذلك الأزرع ، إدلالاً منه بمقدوره على الإتيان بهذه الغرائب المصححة ، قد وضع ، عقب كل لفظ من الألفاظ الثلاثة ، شرحه بين قوسين كمعادته المستوحمة . وهو استعراض مريضٍ يتم على فقر صاحبه في اللغة ، وإن ظن أنه يداريه بهذه الألاعيب الطفولية ، شأنه شأن العريان الـ . . . ، ويجب التجميع ! وهو ، في هذا ، يقلد الأستاذ محمود شاكر ، ولكن أين الثرى من الثرى ؟ وأين النكروش من الفحل الهدار ؟ لقد كان شاكر عالماً بنوع ماقتدار في بحر اللغة الزحار ، أما ذلك النكروش القابع مستخفياً في الظلام فلاصق بوجمائه في الطين . ثم إن شاكر كان لا يذهب هذا المذهب الاستعراضى البهلوانى ، إذ لم يكن يورد من الغرب إلا ما كان له نكتة بلاغية ، فضلاً عن أن عريه داني القطاف خفيف على القلب ويأتى في جو أسلوبى رائع ، فكانه مُجَاج النحل ، أما عبارة « مهتلِس العقْل هَجَزِع ذو زَعَارَة » وأمثالها فتتفتح برائحة ننته خبيثة تدل على أن مخرجها ومخرج العذرة واحد !

أما قوله مراراً : « الآية » عوضاً عن « الآية » فلست أستطيع أن أجدها تفسيراً إلا أنه قد ارتدَّ « نونو » لا يقدر على نطق الهاء ،

« يحميه ربى من الحاسدين » كما كانت تقول الحاجة شادية قديما
فى أغنياتها المشهورة !

ومن دواهى جهله الأظلم قوله ، عند كلامه عن الرسول الكريم
وَحُسْنِ مِطْقِهِ وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ ، إن ميسرة قد تحدث إلى خطيئة عن
« رهافة مِثْرَبِ مُحَمَّدٍ »^(١) ، يقصد رهافة لسانه صلى الله عليه
وسلم . أفلم يجد إلا كلمة « مِثْرَب » ، التى تدل معظم اشتقاقات
مادتها على سلاطة اللسان والبذاء ؟ إن من المقبول جدا بل من
اللائق تماما أن يقال عن هذا الميثر السفیه الذى حرمه الله من حسن
اختيار اللفظ إن له « مِثْرَبًا » يَثْرَبُ به وَيَسْلُجُ ، لأنه فى الواقع ليس
له فى وجهه فم كسائر عباد الله بل است يَضْرِبُ بها وَيَخْرُقُ ، أما سيد
الخلق فشىء آخر . والكتاب بعد مفهم بهذه الاستعمالات السخيفة
الباردة ، ولكن يكفى هذا ، وإلا فلن تنتهى .

والآن إلى غشائاته فى مجال الترادف ، وهذه بعض أمثلة عليها لا
غير : « فَلْيَدْعُ الكذب والتزييف والدخْل جانبًا ، ولتقدم فرضا آخر ،
وهو أن أحدهم أو بعضهم أخطأ فى الفهم أو تسرع فى الاستنتاج أو

شط في التقدير ففهم السكوت موافقة ، والترهت إجابة ، والتمهل قبولاً ، فإن باقبيهم لا يُعقل أن يجيئوا على هذه الشاكلة أو ينسجوا على ذات المنوال أو ينهجوا نفس الطريق ^(١) . فانظر كم مرة في هذه الأسطر القلائل قد افتعل الترادف افتعالا دونما أدنى ضرورة ! « لم تر جزيرة العرب له مثيلاً ، ولم تشهد له ضريباً ، ولم تعين له شبيهاً أو بناءً » ^(٢) . « وهذا محض الخطأ ، وأسن الخطأ ، وجبرثومة الاسراف ، ومعدن البطلان ، وركيزة الفساد » ^(٣) . « أوقع السابقين واللاحقين والخلف والسلف في هذا المرج ، وساقهم إلى هذا الخلط ، ودفعهم إلى هذه الخريقة » ^(٤) . « لا يمارى فيها إلا شكس ، ولا يعارضها إلا منكاف ، ولا يشكك إلا معاند ، ولا يقدح فيها إلا لجوج ، ولا يعيبها إلا يَلْدَد » ^(٥) . آمنت بالله ، الذي لا تنقضى عجائبه والذي أرانا في آحر الرمان كيف أن الاست الذي لم نكن

(١) ص ٦٥ .

(٢) ص ١٢١ .

(٣) ص ٢٥٩ .

(٤) ص ٢٩١ .

(٥) ص ٣٧٦ .

نعرف له من وظيفة إلا أنه يصرط ويخرأ قد أصبح وأضحى وأظهر
وأمسى ويات وصار يتكلم ويأتى بهذه الدرر . أقصد « العرر » .
والأمثلة أكثر من ألهم على القلب ، إذ لا تخلو منها فقرة بل لا تكاد
تعرى عنها جملة إلا فى الشاذ البادر .

ولكن كيف يستقيم هذا التحذلق بفرائب اللغة مع الجهل
بقواعد النحو والصرف التى تفضحه الأمثلة القليلة التالية ؟ : « بيد أنه
فتى يفيض شبابا وقوة وحيوية وسيما قسيما » ^(١) (وصوابها :
« وسيم قسيم » لأنهما المثنان الثانى والثالث لـ « فتى » ، أما النعت
الأول فهو « يفيض شبابا . ») ، و « يقع ... تحت تأثير عمناته ... »
إذ تعلى له : . « ^(٢) (وصوابها « يُعَلِّسُ » ، وهى غلطة لا يقع
فيها إلا من سكر الله بصره عن قواعد لغتنا الجميلة) ، و « بهنج
أصدقاؤه فى إثنائه عن عزمه » ^(٣) (وهى كسابقتها تدل على جهل
مطبق بلمتنا المبقرية ، فالجهلاء هم وحدهم الذين لا يستطيعون
التمييز بين « ثنى » ، أى « طوى » أو « رد » وما إلى ذلك ، وبين

(١) ص ٢٥ .

(٢) ص ٥٤ .

(٣) نفس الصفحة

«أثنى» ، أى أشاد بذكر الخساس) ، و « لا تَقْصِيْ له أسرا (يا
 فلان) » (١) (وصوابها : « لا تَقْصِيْ » بحذف الياء من آخر الفعل
 على البناء للأمر) . وفى الكتاب من هذه الأخطاء العاضحة الكثير
 على أن المبشر الجاهل المستحفى ، بدلا من الاشتغال بستر سؤاؤه
 ذرءا لمزيد من الفصائح أو على الأقل بدلا من السكوت خنزها ، يرفض
 إلا أن يزفد نصيبه من الخزي والعار ، فهو يسعى إلى حثفه بحوافره
 فيتحد سمّت العلماء الذين يتبعون أخطاء الكتاب ليصوّبوا محاولا
 أن يصنع صنيعهم قائلا إن صواب عبارة « هل كانا مذهبين أو أنهما
 كانا جناحين ؟ » هو « كانا جناحان » (٢) . وهنا للجهل الأعمى
 يتبدى أبعسا فى قوله فى الصفحة التى تلى ذلك : « والفرقة بأسرها
 تعتبر فى نظر بولس وببمه هراطقة ومارقون » (بدل « مارقين » لأنها
 معطوف على المفعول الثانى لـ « تُعْتَبَر ») ، وكذلك فى الجملة
 التالية الموجودة فى الصفحة التى بعدها : « هذا ما يؤكد علماء
 المفرجة المدققين فى توارىخ الأديان » (بدلا من « المدققون » ، التى

(١) ص ٢٥٢ .

(٢) ص ١٧٥ .

هى نعت له « علماء الفرجة » المرفوعة على الفاعلية) ، وكذلك أيضاً فى قوله : « ما لك مسرع ؟ ما له مسرور ؟ » ^(١) (بدلا من « ما لك مسرعا ؟ ما له مسرورا ؟ » بالنصب على الحالية) .

وكيلا نطيل على القارئ أسارع فأختم بالتنبيه على هذا الخطأين اللذين يدلان على أن صاحبنا قد بلغ من الجرأة الجاهلة مبلغا لم يصل إليه أحد قبله ، ولا أظن أحدا بعده سوف يصل إليه فى أى يوم من الأيام . إنه يقول عن عبادة بعض العرب للأشجار : « وقد درج عرب ما قبل الإسلام على تقديس الأشجار بل تعبدهم إياها » ^(٢) . وواضح مدى فحش الجهل فى استخدام كلمة « تعبّد » ، التى لا نعى فى هذا السياق إلا أن العرب كانوا يتخذون الأشجار عبدا لهم أو كانوا يدعونها لعبادتهم . وهذا شيء مختلف بل مناقض لما قاله المتشدد البغيض .

كما يقول عن خديجة رضى الله عنها إنها قد « تيقنت ... على بكرة أبيها بنفسها من فصاحة محمد صلى الله عليه وسلم أيام أن

(١) ص ٣٢٢ .

(٢) ص ٢٤٧ .

كان يشتغل في تجارتها قبل أن يتزوجها^(١). فهل من يدلني على معنى عبارة « على بكرة أبيها » ها ؟ إنا نقول مثلاً عن جماعة من الناس : « جاؤوا على بكرة أبيهم » ، أي جاؤوا كلهم لم يتخلف منهم أحد ، أما أن يقال عن شخص واحد إنه « جاء على بكرة أبيه » فهذا هو البله بعينه . فإذا جئنا إلى قول صاحبنا عن خديجة رضي الله عنها إنها قد « تيفت ... على بكرة أبيها بنفسها ... » فهذا بكل تأكيد شيء وراء البله والعته لا أعرف كيف أسميه لأن أصحاب اللغة لم تمرّ عليهم مثل هذه الحالة العقلية فلم يضعوا لها لفظاً يدل عليها .

والكتاب ، فضلاً عن هذا ، يفيض بقلة الأدب والوقاحة المجرمة التي لم يصادفني مثيل لها من قبل . وهذه الوقاحة عنوان على ما في قلب الكاتب المستحفي وراء غيره من غلّ غليل على الإسلام ورسوله ورموزه الكريمة . وأرجح الرأي عندي ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، أن هذا علّ تبشيري ، فليست مستطعماً أن أتصور أي متسبب إلى الإسلام يمكن أن تواتيه نفسه على هذا الإجرام الذي نخطئ كل

الحدود والسدود ، إذ لماذا يكره محمدا من تلقاء نفسه من ينسب إلى دينه حتى لو كان في الحقيقة كافرا به ؟ لنقرأ معا هذه السفالات والبذاءات ، وليغفر الله لنا :

- « هذا الكتاب يقدم رؤية جديدة زعم أنها غير مسبقة لحل هذا اللغز الذي ملأ الدنيا وشغل الناس » ^(١) . يقصد باللغز نبوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاعلا منها مجرد فزرة سوف يتسلى « نيافته » بحلها ، وهي التي قلبت موازين التاريخ والحضارة ومسيرة البشرية ، فإني هذا المؤلفون وسميها « لغزا » .

- « بدأنا مع محمد قبل أن يلتقى أبوه بأمه ، ثم وهو جنين في بطن أمه ، ثم صاحبنا ليلة مولده ، ثم وهو مولود ثم طفل ثم صبي ثم شاب حتى التقطته سيدة قريش » ^(٢) . فانظر السفالة التي يتحدث بها الكاتب الوقح عن سيد الأنبياء وكأنه صبي متشرد بهيم على وجهه في الشوارع دون أهل أو مآوى . أهذه لغة يتحدث بها عن مثل محمد عليه السلام حتى لو لم يكن نبيا رسولا ؟ إن المسألة هنا

(١) ص ١٨ .

(٢) نص الصفحة .

ليست مسألة كفر وإيمان أو حرية فكر واعتقاد بل مسألة عل وبذاءة وقلة أدب ! ولا أدري ما الذى أصاب المسلمين فأضحوا يتقبلون قراءة مثل هذا الكلام دون أن تميد بهم الأرض ميلاً ! أليس هناك رجال شاركهم من لدى أمهم بفارون لمحمد وكرامة محمد وعرض محمد ؟

- « إن هاجس قيام شابة بكبر أو قيب مثلها فى بكّة أو ما حولها بنشل الحبيب المصطفى ونكاحه آرق خديجة وطير النوم من عينيهما اللتين »^(١). إتنى لا أصدق عينى وأنا أقرأ هذه الألفاظ الشوارعية التى لا تجرى إلا على ألسنة النشالين والحشاشين وأشباههم . ومثل ذلك قول الكاتب قبل قليل على لسان خديجة عن محمد عليه السلام : « من ألزم اللازم أن أنكحه بل وأسارع حتى لا تنتشه منى إحدى عذراوات أو أيامى قريش » . أفى سيرة للنبي عليه السلام نحن أم فى غُرزة حشيش بين جماعة من البلطجية والقوادين والقرّادين وشراطى الجيوب ؟

- « تبين لنا أن سيدة قريش (أى خديجة) جفّ ريقها وحفيت قدمها وداخت السبع دوحات ... حتى وافق إمام الأولين والآخرين

(يشير إلى سيدنا وسيدنا وسيد آباءه وأجداده رغم أنهم لا يستحقون هذا الشرف) على حبيبته فكاحها (١).

- « إن هذا الحشد القوي والتجيش المضاعف والتعبئة المخططة من قبل سيدة النساء لراء البشير الذير وهذا الحصار المحكم له حتى رفع الراية البيضاء وسلم لها بطلبها ورضى أخيراً بتكاحها إياه ... لذلك كله علة مفردة لا تؤم لها ، وهي أنه القادم الذي طال انتظاره » (٢)

- « إن سيدة قريش حينما تضاعف الجمل أربعة أضعااف لحمد فإنها بذلك تبلى ما قد يعتور قلب محمد من ندوب ... عندما تطير منه أم هاني لما تفلح سيدة قريش في تكاحه » (٣). ودعنا من الاستخدام الجاهل للحرف « لسا » مع المضارع بمعنى « عندما » ، ولتركز على هذه اللغة الشوارعية !

- « أما من جانب الخاشع (أي محمد ، استهزاء به صلى الله عليه وسلم كما سيتضح فوراً) فلا شك أن القارئ لم يفقه أنه أصبح

(١) ص ٣٩ .

(٢) ص ٤١ - ٤٢ .

(٣) ص ٤٨ وأم هاني هي أخت علي بن أبي طالب ، وكانت هناك بية في أن يتزوجها الرسول عليه السلام في شابه ، ولكن لم يتم الأمر

مثلاً فادًا في المطاوعة والملاينة : « اجلس على فخذي » ،
يجلس . « تعال في حجري » ، يأتي . « ادخل بين قميصي وجسدي » ،
يدخل . وهذا له دلالة لمن لديه ذرة من زكاة أو مسكة من فطانة
على أن الخاضع عنًا ينظر إلى زوجته نظرة الابن إلى أمه الحبيبة الذي
يرى سعادته في برها ومهاودتها وأن ما تأمر به واجب النفاذ المعاجل
لأن الوالدة الحنون لا تشبر إلا بكل ما هو في صالحه ولفائدته حتى
ولو لم يعرف كنه الطلب ولا مغزى الأمر » (١) . كيف يسكت
المسلمون يا إلهي على هذه الإهانات لبيهم ؟ هل أصبح يجري في
عروقهم ماء بارد بدلًا من الدم الحار الذي يعلى في عروق كل
من عنده ذرة من كرامة وكبرياء ؟ هل بلغ بهم الهوان أن أمسى
كل من هبَّ ودبَّ يول عليهم ويتبرز وهم متبلدون لا ينبض فيهم
عرق ؟ (١)

- وفي وقت من الأوقات اجتمع محمد بعدد من صحبه في
حجرة عائشة على غداء أو عشاء ، فأرسلت زوجة أخرى هي صفية
بنت حبيّ طبقًا فيه طعام . ونظروا لأنها يهودية ومن العلية بين قومها

فهى على درجة حضارية أرقى ، ومن ثم تجيد الطبخ » (١) ونعوض
 الإسلام الملتهب هو الذى سَوَّلَ للمبشِّر التكرُّوش أن ينصر اليهودية
 على الإسلام ، فاليهودية (متمثلة فى صفة حسبما توهم الحاقد
 الجهول رغم أن صفة ، رضى الله عنها ، قد أسلمت وبرأت من
 يهوديتها) أفضل عنده من الإسلام (متمثلا فى عائشة ، التى
 يلزمها بطريق المخالفة من خلال وصفه لصفة بأنها من عِلَّةِ القوم) .
 يريد أن يقول إن عائشة (التى يسميها بعد أسطر : « بنت أبى بكر »
 رغبة فى تخرجهما لما نحن الذين نؤمن عن يقين أن ظفرا من أظفار
 قدمها أشرف ألف مرة من رقبة كل عالج لعيم بلغ الدرك الأسفل فى
 النذالة ولؤم الطبع والانحطاط) لا تُسَمَّى صفة فى المركز
 الاجتماعى . يعنى أن أبى بكر الصديق أقل فى نظر الحقير المنحط من
 اليهودى حنَّ بن أعطب علَّو الله ورسوله ، وأن عائشة أقل تحمرا من
 صفة ، التى تستطيع الطبخ المبيك بالصلصة والسمن البلدى واللحم
 على حين أن بنت أبى بكر لم تكن تحسن إلا صنع البصارة بسمن
 « النحلين » ! أرايتم قلة الأدب كيف تكون ؟ على أن الوقاحة الجِلْفَة

لا تقف عند هذا ، إذ مضى المتطاول السفيه فوصفها بعد أسطر
به « الزوجة الغندورة »^(١) ، وذلك بعد أن عرّج في الطريق على
أمهات المؤمنين وأخفهن يلقب « نسوان صاحب النعلين » . وهذا هو
الأسلوب الذى يحاربون به الإسلام ! إنه أسلوب المومسات !

- « وهناك أقصوصة أخرى أو أقصوصتان أخريان ، وهما تعرض
مَركَبَيْنِ (يقصد امرأتين) هما فتيلة بنت نوفل وفاطمة بنت مر
الخشعمية لعبد الله أبى محمد ليركبهما »^(٢) . ترى ماذا يمكن أن
نقول فى التعليق على هذه البيداء سوى أن كل إناء ينضح بما « يفعل
فيه » ؟

- « وعسى الوقت قد حان لطرح أمام باصرة القارئ بعضا من
شواهد خوارق ... الولد المبروك »^(٣) . أتدرى أيها القارئ المسلم من
ذلك الولد المبروك ؟ إنه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ! فانظر
إلى المدى الذى وصلت إليه جرأة أعداء الإسلام فى إهانة نبيك وفى

(١) ص ١٠٠ .

(٢) ص ٢٠٦ .

(٣) ص ٢٠٧ .

عقر دارك مصر حارسة الإسلام ! وانظر كذلك إلى البلاد والجمود
الدين تتلقى بهما هذه الإهانات !

- هـ (أى خديجة) تزوجت مرتين أنجبت فيهما أولادا
وبنات ، وهو (أى محمد) لم يدخل دنيا ^(١) ، هكذا بلغه
المسايل !

- أ غرقته (أى أغرقت خديجة محمدا) بطوفان حبها وأبسته
الحرير وأطعمته الخمير فصار لها عاشقا كما قال . وكيف لا يفعل
وهي قد نقلته نقلة لم يحلم بها مجرد حلم من عسيف (أى أجير)
يكدح من مكة إلى حياضة ومن قرية القداسة (أى مكة) إلى الشام
لقاء بكر أو بكرين ، إلى واحد من السادة الغطاريف الذين يلبسون
أعلى الثياب وأرقها وتلذذون بأشهى الأطعمة وأحلى الأشرية ،
ووكظته (أى دفعته) إلى التجربة (أى تثقيفه وتدريبه وإعداده
لتصنيعه نبيا) ^(٢) ليرفع فيها على مهل وبمرح على ريث ^(٣) . هل
هناك لؤم ووقاحة وقلة أدب أشد من هذا ؟

(١) ص ٢٨٩ .

(٢) انظر ص ٣٠٣

(٣) ص ٣٠٤

- « ومن ناحية أخرى فقد ذاق (محمد) الحرمان وكابد المسغبة وكواه الفقر ، فلا يسكن روعه ويهدئ باله ويطمئن نفسه ويريح خاطره سوى أن يوضع المال جميعه بين يديه (أى تضع خديجة كل ما لها تحت تصرفه) » ^(١). ترى هل يستطيع أى وعد زعيم أن يقول شيئاً من هذا الكلام ، ولو عشر معشاره ، فى حق حاكم بلده ؟ إن مثله لا توائيه الجرأة والصفقة إلا فى حق الرسول الأعظم لاطمئنانه إلى أنه لا حياة لمن يهينهم ويصق على وجوههم من المسلمين ، إذ هو يعرف أنهم قد فقدوا كل نخوة فلم يعودوا يفضبون لأى شيء ! أقولها مرة أخرى وبالفم الملائن : « فقدوا كل نخوة فلم يعودوا يفضبون لأى شيء » .

- « الذى ترجح أنه (أى الرسول) فى البداية عَصَلَجَ (عن التقدم لخطبة خديجة) وامتنع واحتج ... إلخ ، ولكن الطاهرة (أى خديجة) بما لها من كَيْسٍ وفطنة ولباقة وتجربة فى معالجة البُعُول استطاعت أن تثنيه عن موقفه ... وتأخذ منه صِلَ القبول وشارة الرضى وعلامة الوفاق » ^(٢). أى امتهان يا إلهى لأسمى علاقة زوجية

(١) ص ٣٠٩ .

(٢) ص ٣١٠ .

فى تاريخ البشر ! وما هذه اللغة الوسخة : « عَصَلَجَ » تجربتها فى معالجة البعول . صلتَ القبول ، ؟ أين نحن يا ترى ؟ وعمّن يتكلم القدم الغبى ؟ إن العِلَّ التيشيرى لا يتركه ينعم بهدوء أبداً بل يبقيه دائماً متفززاً سلبط اللسان هجّاماً هيّاباً غمّازاً لعمّازاً فى حق الرسول الكريم وروجه الطاهرة الشريفة اللذين لا يعرف النكارهش الأنتان كيف يتحدّثون عهما بما ينبغى لهما من تجلّة واحترام لأن وحل المجارى الذى يعيشون فيه وبأكلون منه قد أفقدهم الحسن بما يليق وما لا يليق !

— الذى حار الثقافة الدينية آنذاك (أى فى مكة عَشِيَّة البعثة النبوية المشرقة) هم نفر من السخبة القرشية ، أما الآخرون ، وهم العامة الذين يكدّون فى سبيل لقمة عيش جُشِب (= محشّن) ، فلا يفكرون فيها مجرد تفكير ، إذ هى بالنسبة إليهم ترف لا يقدرّون عليه . ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة عقلانية مجردة لا بد أن نتساءل : أنى لفتى صغير خرج بالكاد من مرحلة الطفولة واشتغل برعى العنم ثم لما شبّ قليلاً عمل أجيراً تجارياً يَبْكُر من الإبل (يقصد الرسول الأعظم) ، أنى له أن يحوز ثقافة دينية أو ثقافة من أى نوع ؟^(١) .

يعنى بالعربى : كان جاهلاً تمام الجهل ، صفحة ذهنة « بيضاء من غير سوء » (كما قال الكاتب الوقح المستحفى بعد ذلك بأسطار) وعامياً من الأوشاب الذين لا قيمة لهم فهم يرضون بما يقدمه لهم مستأجروهم من فتات . إنه ، فى نظر هذا « المركوب » ، ليس أكثر من بائع مريح يشتغل بأجر حقير عند إحدى معلّصات السوق الكبار ! وهذا ما عند المبشرين ومن يشابههم فى وصف زعيم الرسل والنبين أجمعين !

- « فرد واحد من غير هؤلاء (أى غير ورقة وبحيرا وهذاس ومرجيوس) أسندت إليه هندوز التجربة (معنى خديجة) دورا صغيرا . حقيقة أنه لا يعدو ما يؤديه كومبارس فى شريط سينمائى ، بيد أنه بكل المقاييس يعدّ مشاركة ، ولو أنها عجفاء هزيلة ضامرة ماحلة ... والورد الذى نعينه هو أبو بكر بن أبى قحافة » (١) . وهكذا تحولت خديجة رضى الله عنها ، على يد المبشر اللثيم ، إلى مُخرجة أفلام ومسرحيات ، كما تحول أبو بكر إلى كومبارس . وليحمد الله ويقلّ يده ظهرا لبطن لأن الست المخرجة قد عطفّت عليه وأظهرته فى فلمها الجديد المسمى « تصنيع نبي » والذى سيضرب الدنيا وتقلبها

وأما على عقب ومحقق إيرادات خرافية . ذلك أنه فلم لم يسبق له
مثيل كما يدعى الكاتب ويعيد في وصف كتابه . إلا أننا لا نستطيع
أن نقف مكتوفى الأيدي صامتين أمام هذا التهريج : فلا الفلم غير
مسيبوق ، ولا هو يستأهل شيئا من هذه الضجة ، لأن المسألة في
الحقيقة لا تخرج عن أن تكون تدجيلا وقحا من النوع الذى
يمارسه باعة اللبان الذكور فى الحافلات عندما يصبحون بأن لبانهم
يحمّر الخدود ، ويرم الكموب ، ويطلو الصدور ... إلخ . وعلى هذا
فلا بد من فضحه ، ولكن خطوة خطوة ، فاصبر معنا أيها القارئ
الكريم .

إن فكرة الكتاب تقوم على أن ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد
قد التقيا محمداً من بين أهل مكة ليشفاه « ويصنّفراه ويُقلّوظاه
ويلمّاه » (كما يقول المبشر الحقيّر الذى وراء الكتاب) كى يصنعا
منه نبيا ، إذ شاع وقتها بين العرب وأهل الكتاب أن هناك نبيا قادمًا ،
فأخذ الجميع ينتظرونه ، لكن ورقة وخديجة سبقا الباقيين فاختارا
محمدا اختيارا لما سمعا من الكرامات التى كان يقال إنها تحدث له
منذ أن كان فى بطن أمه ، وأخضعاه لبرنامج تدريسي قاسي يتلخص فى

أن تقرأ له خديجة ما يترجمه ابن عمها ورقة من الإنجيل وتشرحه له وتطلب منه أن يحفظه ثم يعيد تسميعه كما يفعل شيخ الكتّاب مع تلامذته ، بالإضافة إلى تفرغها إياه من همّ السعى وراء المعاش بوضع كل ما تملك من ثروات طائلة بين يديه يفعل به ما يشاء حتى تكسب قلبه فلا يفكر في غيرها ، مع دفعه إلى غشيان الأسواق والتجمعات التي يرتادها الرهبان والمبشرون من كل دين كي يحتك بهم ويتعلم منهم ما ينفعه مستقبلا في الوظيفة التي تمده لها هي وابن عمها إعدادا . وهو يؤكد أن ورقة كان قسّا لكنيسة مكة وما يجاورها ، كما كان كثير من أفراد قبيلته بنى أسد نصارى ، ومنهم خديجة رضى الله عنها . ثم يمضى قائلا إنهما قد انتقلا بمحمد بعد ذلك إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الوحدة والابتماد عن الناس بالتحشّث في غار حراء وشحنه أثناء ذلك بكل ما يساعد على أن يرى في منامه الرؤى التي ينبغي أن تحدّث للمقادم المنتظر ، حتى وقعت الواقعة فعلا ورأى منام العار الذي خيل إليه أنه هو النبى الموعود . فبعدئذ أعلنت خديجة للعرب ، وهى فى غاية السعادة بنجاحها هذا الذى لم تكن تتوقع رغم ذلك أن يكون بذلك الشكل الباهر ، أنهم هم أيضا قد أصبح لهم نبى كأهل الكتاب .

والكاتب ، فى أثناء ذلك ، يردّ أن دراسته هذه هى دراسة جديدة تمام الجدة ، إذ أتى فيها بما لم يسبقه إليه أى كاتب آخر ، وذلك فى غرور وانتعاش وتعالّم لم أعهدّه فى أى كاتب من قبل ^(١) . لكن ما رأى القارئ الكريم إذا قلنا له إن هذا كله تنفّج كادب وقبح ؟ فهذه الأفكار ، وغيرها كثير ، مأخوذة من كتاب صدر منذ النشرين وعشرين سنة (بالضغط فى سنة ١٩٧٩ م) فى لبنان بعنوان « قسّ ونبي » لمن سمّى نفسه على غلاف الكتاب « أباً موسى الحريرى » . والواضح أنه نصرانى ، وإن كنت لا أدري أهو لبنانى أصيل أم من المبشرين الذين يعيشون فى لبنان أو يترددون عليه . وهذا هو السرّ فى إشارتى التى مرت منذ صفحات إلى ذلك البلد حينما كنا بصدد الحديث عن عبارة صاحب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين » الخاصة باهتمام العقل والزعارة ، فقد أردت بهذه الإشارة إلى أن ألمّح من بعيد لمن يعينهم الأمر إلى قننى واع جيداً لعملية التعصب والاحتياط التى يقومون بها فى وقاحة بجمّة ، و « كل ليبب بالإشارة بفهم » كما جاء فى الأمثال !

(١) من ١٨ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٧٩ ، ٣١٥ مثلاً .

فأبو موسى الحريري هذا يؤكد أن الوجود النصراني في مكة بل في الحجاز كله قبيل البعثة النبوية كان كبيراً^(١)، وأن وجود صورة المسيح وأمه بين الصور التي كانت مرسومة على جدران الكعبة وإبقاء النبي عليه السلام عليها يوم الفتح دون سائر الصور شاهد على ذلك^(٢)، وأن ورقة بن نوفل كان قساً فعلاً لقريش في كنيسة مكة^(٣)، وأن عدداً غير قليل من قومه بني أسد بن عبد العزى كانوا نصارى^(٤)، وأن نصرانيته رضى الله عنه ليست هي المسيحية التي نعرفها بل كان من فرقة الإيويين الذين كانوا لا يعترفون بالوهمية عيسى ولا بصلبه^(٥)، وأن الإنجيل الذي كان في يده بطالمة وترجم منه ليس هو الأناجيل التي نعرفها ، بل هو « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، الذي كانت جماعة الإيويين لا تعرف غيره ، وهو إنجيل متى مطروحاً منه الفصول التي تتحدث عن ألوهية عيسى وما

(١) ص ١٧ .

(٢) نفس الصفحة .

(٣) ص ١٨ ، ٢٠ .

(٤) ص ١٦ .

(٥) ص ٥ - ٦ ، ١٩ - ٢١ ، ١١٢ - ١١٥ .

إلى ذلك مما لم يكن أولئك القوم يعتقدونه في المسيح عليه السلام^(١)، وأنه هو الذى عقد قرآن النبي صلى الله عليه وسلم على خديجة ، رضى الله عنها وأرضاها ، وألقى خطبة النكاح بوصفه كاهنا يقوم بطقوس الزواج النصرانية لا بوصفه مجرد قريب للعروس^(٢)، وأن خديجة كانت آنذاك على دين النصرانية وكذلك محمد عليه السلام^(٣)، الذى كان يدرك تمام الإدراك أنه لا يستطيع تطبيقها أو التزوج عليها بأخرى طبقا لما تقضى به قوانين الكنيسة فى أمور الزواج^(٤)، وأن ورقة هو مرتب هذه الرتبة التى كانت شيئا غريبا على المجتمع العربى لمصادمتها للتقاليد^(٥)، وأنه أيضا هو الذى دربه على التأمل الروحى والصلاة فى غار حراء وتولى إعلان نبوته على العرب^(٦)، فهو الأستاذ الذى علم وأرسى الدعائم ، ومحمد التلميذ الذى سمع وتعلم وشيد البنيان ، أو بعبارة أخرى هما المرئى والريب :

(١) ص ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ١٤٣ .

(٢) ص ٣٠ ، ٣٨ .

(٣) ص ٣٨ .

(٤) ص ٣٩ .

(٥) ص ٣١ ، ٤٠ .

(٦) ص ٣١ .

فالقَسَ نقل كلمة الله من العبرية إلى العربية ، والنبي قام بتليغها إلى قومه بالعربية ^(١) ، وأن القَسَ الأستاذ رغم هذا كان حريصا على التواري في الظل خلف تلميذه بعيدا عن أنظار التاريخ ^(٢) ، وأن النبي التلميذ قد تفوق على أستاذه لما كان يتمتع به من ذكاء وعنفوان وجرأة وتجرد وإقدام ^(٣) ، وأنه عليه السلام قد عمل على أن تجيء رسالته مناسبة لظروف البيئة والمجتمع ^(٤) ، وأنه ليس هناك في الحقيقة وحى سماوى بل مجرد تلقين بشرى من القس للنبي ، فهو وحى أرضى القس فيه هو أداة توصيل الرسالة لا جبريل ، إذ الإنسان كائن مختار لا آلة صماء قبلُغ ما يأتيها من السماء كما هو دون أن يكون لها دور تؤديه ^(٥) ، وأن القَسَ ومث عمه قد تعاونوا بما لهما من خبرة ودهاء وجاه ومال على إعداد محمد للرسالة القادمة وتدريبه وتهيئته باطنيا من خلال قراءة الكتب الدينية وتفسيرها له وخلوة ورقة معه

(١) ص ٦ ، ٨ .

(٢) ص ٨٦ .

(٣) ص ٦ ، ٦٣ .

(٤) نفس الصفحة .

(٥) ص ٧ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٨٨ ، ١٨٦ .

شهرًا كل عام في غار حراء حيث يصليان ويتأملان^(١) ، وأن هذه
الحلوة لم تكن عربية على طبيعة محمد ، الذي كان يميل إلى العزلة
والابتعاد عن الناس في حياته قبل ذلك^(٢) ، وأنه اقتدى فيها بحلوة
موسى وإيلياء (على جبل حوريب) ويحيى (في بركة الأردن) وغيرهم
من الأنبياء الأولين^(٣) ، وأن محمدًا كان عاريا عن أية ثقافة دينية إلى
أن التقى بورقة ، الذي ثقفه ودرّبه وربّاه وأعده كي يكون نبيا^(٤) ،
وأن عددا من كتاب السيرة قد جمّعوا بعلاقته بالقس ، وإن عملوا
في ذات الوقت على إخفاء الدور الذي نهض به الأستاذ في تصنيع
تلميذه^(٥) ، وأن واقعة غار حراء لم تكن إلا رؤيا في المنام لا حقيقة
لها في الواقع^(٦) ، وأن الوحي قد فتر مدةً غبّ وفاة ورقة بما يدل على
أنه هو مصدر الوحي لا السماء ولا جبريل^(٧) ، وأنه إلى جانب ورقة

(١) ص ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ .

(٢) ص ٤١ .

(٣) ص ٤٣ .

(٤) ص ٤٩ .

(٥) ص ٥٢ .

(٦) ص ٥٥ .

(٧) ص ٣١ - ٣٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٩٤ .

كان هناك خديجة وبهيرا وأبو بكر^(١)، كما أن الرهبان المذكورين في كتاب «قسّ ونبي» بصفتهم أصحاب دور مؤثر في حياة محمد هم هم الذين ذكرهم صاحب كتاب «فترة التكوين في حياة الصادق الأمين»^(٢) كقسّ بن ساعدة وبهيرا وعداس وغيرهم، بالإضافة إلى انكاء الكتابين إلى حد بعيد على «السيرة الحلبية» ذات الصبغة الشعبية الواضحة والروايات الغريبة والمبالغات العجيبة التي لم ترد في الأحاديث النبوية أو كتب السيرة المبكرة مما لا نطمئن إليه عقلية الناقد المدقق. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يميز بين الكتابين هو أن الكتاب الأخير يعطى لخديجة دوراً في توجيه محمد وإعداده وتصنيعه ليكون نبياً أكبر مما يعطيه لهاها الكتاب الأول. وبالمناسبة فكل المؤلفين يؤكد أن ما أتى به هو شيء جديد لم يسبقه إليه سابق، وإن كان الحريري يقول ذلك دون طعنة أو ثرثرة^(٣).

وبالمثل فإن مصطلح «الماورائيات» الذي تشغف بملوكه الكتب

(١) ص ٥٣، ٦١، ٦٢، ٦٤.

(٢) ص ٢٥ - ٢٦، ٥٧.

(٣) ص ١٢٢.

التي تحمل اسم « خليل عبد الكريم » (وهو مصطلح لا أذكر أنى وجدته عند غيره من الكتاب المصريين أو العرب) موجود كذلك فى كتاب الحريرى ^(١). وهناك أيضاً مصطلح « التيولوجى » (بالتاء فى كل المواضع التى ورد فيها من كتاب « فترة التكوين ») ^(٢)، وقد كانت الكتب السابقة التى تحمل اسم خليل عبد الكريم تكتبها بالتاء حسب المطلق الإنجليزى لها، فخمّنت (قبل أن يقع فى يدي كتاب « قسّ ونبي ») أن تكون بين الأيدي التى وراء الكتاب الجديد يدٌ استشراقية أو تبشيرية فرنسية، فلما حصل فى يدي كتاب أبى موسى الحريرى ووجدت التشابه الرهيب بينه وبين كتاب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين » لفت نظرى فيه أن كل مراجعه الأجنبية تقريباً بالفرنسية ، ومن بينها كتاب دانييلو المسّمى " Théologie du Judéo - Christianisme " فعضد ما كان قد قام بنفسى من ظنّ بهذا الشأن ^(٣).

وهذا التشابه الرهيب بين الكتابين هو سبب آخر يضاف إلى الأسباب السابقة التى أثبتت حسنك الشكّ فى صدرى تجاه نسبة

(١) ص ١٤٩ ، ٢١٥ .

(٢) ص ٢٧ ، ١١١ ، ١٨٤ مثلاً

(٣) انظر ص ٢١ ، ٢١٩ حيث يذكر المرجع العربى المشار إليه .

الكتب التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » إليه . فالذى فى الكتاب المنسوب إليه هو نفسه ما فى الكتاب الذى يحمل اسم « أبى موسى الحريرى » مع اختلاف بعض التفاصيل هنا وهناك بما لا يؤثر فى فكرة الكتابين الرئيسية وخطوطها العامة كلها . وتفسيرى للأمر هو أن هناك جهة واحدة وراء هذين الكتابين وزعت الأدوار بحيث يبدو وكأنهما من تأليف شخصين مختلفين وصلا إلى ما قالاه ، كل من طريقه هو وبمنهجه هو دون أن تكون له صلة بالآخر . وهو كلام إن جاز على القارئ العادى الخالى الذهن من مثل هذه الألاعيب والتريبات فإنها لا تروج عند الباحثين المدركين لأبعاد قضايا الصراع الحصارى والمؤامرات التى لا تكف عن غزلها ونسجها وحركتها المؤسسات المعادية للإسلام ، وعلى رأسها مؤسسات التبشير والتنصير . ومن الواضح وضوح ضوء الشمس فى حمارة القبط أن كلا الكتابين يحاول أن يَدْخُلَ فى رُوع القارئ المسلم أن محمدا ما هو إلا صنعة أيدي بشرية نصرانية وأنه لم يأت بأى شئ جديد ، ولا علاقة له بالسماء ولا بالوحي الإلهي . وبالنسبة للكتاب الذى يحمل اسم « خليل عبد الكريم » فسوف يلاحظ القارئ أن فيه بعض الهجوم الذى لا قيمة له على أتباع الكتاب المقدس وبعض شخصياته ، لروم

الشُّعْلُ حتى تجيء الطبخة أكثر سبكا وأفوح بالروائح التي تتحلب لها
الأشداق كقوله مثلا عن سيدنا يوسف : « الفتى الحليوة » ^(١) ،
وكهجومه على پولس واتهامه له بإفساد النصرانية ^(٢) . وهي إضافات
لا تغضب المؤسسات المذكورة في شيء ، فهي موجهة إلى المسلمين
لا إلى أهل الكتاب ، والتاجر المضروس هو الذي يغرى عملاءه ببعض
التحفيصات والتضحيات والخسائر البسيطة بغية كسب ثقتهم المطلقة
وتحديدهم وتطويعهم لما يريد بعد ذلك . فهم في ذلك كما قال المثل
العربي القديم : « أَوْسَعْتَهُمْ شَتْمًا ، وفاروا بالإبل » ، إذ ماذا يفيد
صاحب الإبل المسروقة إذا أشبع مارقيه شتما ما داموا قد استولوا
عليها ورحلوا بها ؟

وما يجعلني أستهجد أيضا تأليف خليل عبد الكريم لهذا الكتاب
ما فيه من تصورات ومفاهيم ومصطلحات كتابية غريبة لا تعرفها
العقلية التي تربت في جو إسلامي حتى لو أصبح صاحبها كافرا
بمحمد ودينه ، مثل تسمية أنبياء بني إسرائيل بـ « البطارقة /

(١) ص ٢٨٤ .

(٢) ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

البطارقة) أو بمرادفها العربى : « الآباء الأولين » . وقد تكرر هذا كثيرا بصورة عجيبة ^(١) . ومن ذلك أيضا تسميته لإبراهيم ويحيى عليهما السلام بـ « أبراهام ويوحنا » ^(٢) ، وهى من الدقائق التى فات من وراء الكتاب أن يتلافاهما فيستبدل بالاسمين المذكورين صيغتهما العربيتين . ومثل ذلك اسم « ملاك الرب » ، الذى تردد كثيرا فى الكتاب ^(٣) ، وهو مصطلح نصرانى لا يمكن أن نخطئه العين ولا الأذن !

كذلك رأينا المؤلف ينحاز دون أدنى داع إلى صفة ضد عائشة (رضى الله عن الاثنين ، ولعن العِلج السمج الذى يتطاول إلى التدخل بينهما) رافعا الأولى وقومها اليهود إلى حنان السماء ، ولا مزا الثانية لمزأ يظن أنه يسيء إليها ويحقّر من شأنها هى وأبيها والعرب والمسلمين أجمعين ، وهو ما لا يمكن أن يحظر فى بال أى شخص

(١) ص ٩٦ ، ١٤٤ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢٧٠ على سبيل المثال

لا غير

(٢) ص ٢٨٢ .

(٣) ص ١٥٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ على سبيل التمثيل

ليس إلا .

ينسب إلى الإسلام مهما يكن موقفه الحقيقي من هذا الدين ، إلا إذا وقع تحت وطءٍ عنيفٍ لا قبل له به !

ومن هذا الوادى أيضاً استعماله مراراً لكلمة « أبرشية » ^(١) ، حيث يزعم أن مكة كانت بها أبرشية نصرانية ، وهي كلمة غير معروفة إلا فى البلاد الغربية ، ومن ثم فلا يستخدمها حتى النصارى العرب . ومن فلتات القلم الفاضحة فى الكتاب أيضاً لفظة « المرأة » ^(٢) ، التى لا يستخدمها على هذا النحو إلا بعض المستشرقين والكتاب النصارى فى لبنان ، أما فى مصر فلا تبقى على همزها إلا فى حالة التنكير ، فإذا أدخلنا عليها « أل » حذفنا هذه الهزة . ومن الأمارات كذلك على أن هناك أيدياً كتابية وراء هذا الكتاب تكرّر الاستشهاد بالكتاب المقدس فى مسائل الرؤى الدينية والوحى وما إلى ذلك باعتباره الفيصل فى الموضوع ^(٣) ، والقول بأن خلوة محمد فى غار حراء هى تقليد يهودى نصرانى أحذه عليه السلام عن خديجة

(١) ص ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ٣٣٧ مثلاً .

(٢) ص ١٢٤ .

(٣) ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٣٦٨ مثلاً .

عن ورقة عن التوراة والإنجيل^(١) ، وكذلك اختصار اسم « سفر إشعياء » مثلاً إلى « إش. » ، على عادة أهل الكتاب ، بخلاف المسلمين ، الذين يذكرون الاسم في مثل هذه الحالة كاملاً^(٢) . ومن هذه الأمارات أيضاً تحشر مؤلف الكتاب على دخول الإسلام مصر ، وتسميته فتح عمرو بن العاص لمصر استعماراً عربياً استيطانياً أنت في ركابه قبائل كثيرة دهست صعيد مصر ، واتهامه له رضى الله عنه بأنه « فعل الأفاعيل هو وجنوده بمصر المحروسة عكس ما يزعمه حملة المياخر من المؤرخين المحدثين »^(٣) . فهل يعقل أن يقول خليل عبد الكريم ذلك ، وهو المصدر من هؤلاء العسب الذين لولا الفتح الإسلامى المبارك لأرض الكنانة ما فكروا أصلاً فى الجىء إلى مصر المحروسة ؟ أم هل كانوا سيأتون حباً فى العجل أبس وعبادته ؟ لقد كان عندهم من الأصنام والأوثان ما يعنيه عن كل العجول ؟

ثم إن النفس التشيىرى الصليبية التى ليهب علينا أيضاً من خلال السطور التى تهاجم د. عبد الحليم محمود ونحاول الاستهزاء به والإقلال من شأنه^(٤) . ذلك أن الشيخ المبجل ، عليه رحمة الله ،

(١) ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ٢٨٤ .

(٢) ص ٣٥٦ .

(٣) ص ٤٧ .

(٤) ص ١٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ مثلاً .

قد ترجم مثلاً كتاباً من الفرنسية عن المسيحية يفصح عوراتها ويتبع بالتوثيق العلمي ما لحقها على مدى تاريخها الطويل من عبث وتزييف . فهذا هو السبب في أن حظي هذا العالم الجليل من مؤلف الكتاب بالتداول على شخصه الكريم ، مع أن ذلك المبشر الجبان لا يتسامى إلى مقام حذاء الشيخ ، الذي كان من أشجع من عرفت مصر من مشايخ الأزهر وأئبلهم وأخشاهم لله ، رحمه الله وأسكنه علياً الجنان .

ومن أوجه التشابهات بين الكتابين بما يعضد ما نقوله من أنهما خارجان من بالوعة واحدة هذا التفسير الحلمنتيشي للآيات القرآنية : فعلى سبيل التمثيل نرى المسمى « أبا موسى الحريري » يفسر قوله تعالى في سورة « الأحزاب » : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله » على أساس أن المراد بـ « الأحزاب » فرق النصارى التى تتصارع فيما بينها حول طبيعة المسيح وصلبه وما إلى ذلك ^(١) ، مع أن الآية إنما تتحدث عن أحزاب المشركين الذين تجتمعوا من كل صوب لمحاربة النبى وأتباعه فى غزوة الحندق كما لا

يخفى إلا على جاهل حقود قد جعل الله في أذنه وقلبه وقرأ ، وعلى عينه غشاوة ! وبالمثل نراه يشرح قوله تعالى من سورة « المائدة » : «لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم» بأن الخطاب فيه موجه إلى المسلمين وأن القرآن يطالبهم بالعمل بالتوراة والإنجيل والقرآن جميعا لا بالقرآن وحده ^(١) . وهذا العِلج الخبيث قد اقتطع من صدر الآية عبارة « قل : يا أهل الكتاب » ، التي تدل دلالة قاطعة لا مجال معها للبعث التبشيري الدنس على أن الحديث فيها موجه لليهود والنصارى لا للمسلمين . وعلى نفس النهج الشيطاني يتناول قوله تعالى في الآيات التالية : « الثابتون العابدون الحامدون السائحون الراكعون » ، و « يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » ، و « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » قائلا إنها تتحدث عن رهبان النصارى وتسميتهم ^(٢) ، مع أنه لا صلة بينها وبين الرهبان والقساوسة على أي نحو من الأنحاء ، إذ الحديث فيها عن المؤمنين من أتباع محمد ليس غير . وهذا من

(١) ص ١١٧ .

(٢) ص ٢٠٤ .

الجللاء بحيث لا يمكن أن يفسرها بغير ذلك إلا وغد لعيم ! وغير ذلك كثير . وواضح ماذا يريد أن يقول هذا المبشر . وسوف نرى فيما يلي من صفحاتٍ مثل هذه التفسيرات البهلوانية في الكتاب الموضوع عليه اسم « خليل عبد الكريم » .

ثم أخيراً وليس آخراً ينبغي ألا يفوتنا هذا المقدار الهائل من الروايات المستكنة في أعماق الكتب القديمة مما جعل المستشرقون وكذاهم قصصه واستخراجه بملقاط الغل الأسود وشبك بعض شبكا متعسفا متمعلاً والخروج منه بنتائج لا تُسلم إليها المقدمات . وقد قلت إن ما نعرفه عن خليل عبد الكريم لا يساعد عقلى على الاطمئنان إلى أنه هو صاحب كل هذا . نخذ مثلاً عندك أسماء النبي وصفاته وألقابه التي تجاوزت المشرات والتي يحرم مؤلف الكتاب على استخدامها (بدلا من لقب النبوة أو الرسالة) بطريقة استهزائية مثل « الحاشع » و « الخاضع » و « المسعود » و « آكل الشعير » و « المَعطى الوسيلة » و « سعد الحلائق » و « البهى » و « الخالص » و « راكب الأنان » و « صاحب التعلين » ... إلخ ، إلخ إن يد الاستشراق والتبشير واضحة هنا أيضاً . وإذا كانت اليد الذى ألقت الكتاب تظن أنها تستهزئ بالرسول الأعظم حين تسميه

«صاحب النعلين» أو «راكب الأتان» مثلاً فإننى أذكر هذه اليد النجسة الآتمة بأن من البشر أشخاصاً بلغوا الغاية فى السمو والنبالة تُمدح النعال لتشرّفها بملامسة أقدامهم كما فعل المقرئ مع نعال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ ألف كتاباً عنوانه «فتح المتعال فى مدح النعال» ، على حين أن ثمة أناساً (أو بالأحرى : بغالاً) كهؤلاء المستهزئين بمحمد عليه السلام لا يستحقون إلا الضرب بالنعال ، بل إن النعال لتشمعز من أن تُصَفَّحَ بها وجوههم وأقفاؤهم تحمّزا من التنجس بملامستهم . ولعل بعض المؤلفين يضعون لنا فى هذه المسألة كتاباً بعنوان «اشمئزاز النعال من صفح البغال» . ثم ماذا فى ركوبه عليه الصلاة والسلام الأتان ليهما الأتان ؟ أرضوا وادخلوا جحوركم لا يخطئكم أحقر نفير من ألباع محمد بنعالهم وهم منكم مشمئزون !

بعد هذا كله كيف فوّانى صاحب الكتاب الذى نحن بسبيله الآن نفسه على الذهاب مع الدعاوى العريضة بأنه ابن بجدتها الذى أتى بالفتح المبين فى كشف الوحي المحمدي وسبق الأولين والآخرين رغم أن الكتاب مأخوذ من كتاب «قسّ ونبي» إلا ما ليس له قيمة تذكر ؟ بعضاً من حُمرّة الخجل أيها الأنجاس المتاكيد !

وبعد ، فمسألة الكتب وانتحالها ظاهرة معروفة ، وبخاصة فى

ميدان الكيد للإسلام . فلك أن حمل الكتاب الذى يهاجم ديننا اسم مؤلف إسلامي أقمن أن يكون له تأثير أقوى في نفوس القراء المسلمين . ولدينا من هذه الكتب على سبيل المثال كتاب « مقالة في الإسلام »^(١) لجرجيس صال (George Sale) أحد مترجمي القرآن الكريم إلى الإنجليزية ، فقد نقله بعضهم إلى العربية في الثمانينات من القرن قبل الماضي وتسمى على الغلاف باسم « هاشم العربي » ، وهي (كما ترى) تسمية إسلامية صرف ، ثم تظاهر بأنه يريد أن يزيد القراء تعريفا به فوصف نفسه بأنه « نزيل البلاد الإفريقية حالا » ، فبدلاً من أن يحكمها أعماها ، إذ ماذا تعنى هذه العبارة إلا مزيداً من الغموض والتحير ؟ والذى أراه أن المترجم هو أحد أدباء النصارى اللبنانيين في ذلك الوقت لأن ميسم الأسلوب الذى صيغ به الكتاب يقول هذا بأعلى صوته . كما أن المتسمى بـ « أبي موسى الحريري » نفسه قد أبدى تشككه في اسم « هاشم العربي » هذا ، إذ وضع علامة استفهام بين قوسين بعد الاسم^(٢) .

(١) هذا الكتاب هو ، في الأصل ، المقدمة الطويلة التى ألفتها سيل (Sale) من صدر ترجمته للقرآن بصوت « The Preliminary Discourse » ، مضافاً إليها تعليقات المترجم التى هاجم فيها سيدنا ومسيده رسول الله بقلة أدب سقيمة .
(٢) ص ٢١٨ مثلاً .

وكلنا أيضاً نعرف قصة الرسالة التي حصل بها منصور فهمي على درجة الدكتورية في أوائل القرن العشرين من فرنسا والتي صوّب فيها سهام الاتهام الحمقاء إلى الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم تبرأ مما جاء فيها بعد ذلك وعاد إلى دينه كره أخرى . هذه الرسالة يؤكد محمد لطفى جمعة ، وهو عن تعلموا أيضاً في فرنسا في ذلك الوقت ، أن المستشرقين قد أخذوا فهمي إلى هولندا وكتبوها وطبعوها له هناك ، وأن دوره فيها لا يتعدى قبوله وضع اسمه عليها حتى تروج بين المسلمين ويكون أثرها فيهم أعنف (١) .

كذلك أورد د. محمد سيد أحمد الحُسَين حالة أخرى من هذا القبيل ، وهي كتاب « لماذا القرآن ؟ » (الذي صدر في ليبيا لمؤلف يدعى د. عبد الله الخليفة) وكتاب « قراءة في صحيح البخاري » (المؤلف يدعى د. أحمد صبحي في الهجوم على السنة النبوية) ، فهما كتابان متشابهان تشابهاً ضخماً بل يكادان يتطابقان ، ومع

(١) انظر رابع لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / عالم الكتب / ١٩٩١م / ٢٢٢ - ٢٢٣ ، ومحمد لطفى جمعة / قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنناد / عالم الكتب / ١٩٩٨م / ٢٩ - ٣٠

ذلك فقد صدر كل منهما في بلد مختلف ومؤلف مختلف^(١).

فإذا جئنا إلى دراسة ما في كتاب « فترة التكوين في حياة الصادق الأمين » (الذي بلغنى أن النية كانت متجهة لتسميته « تصنيع نبي » ، بيد أنهم خَشُوا مقبة هذا التهور وآثروا أن يستروه بورقة ثوب فأعطوه العنوان المذكور) ، فماذا نجد ؟ نبدأ أولاً بما فيه من تناقضات بعضها داخلي ، وبعضها مع أفكار تضمنتها الكتب السابقة التي تحمل اسم « خليل عبد الكريم » .

ونبدأ بتناقض موقفه من أمة النبي . إنه يبدأ الفصل الأول المسمى « قيдам »^(٢) بقوله : « نحن نؤمن أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يطالع صحيفة أياً كانت المادة المصنوعة منها ولم يمسك قلماً ولم يخط يمينه كلمة ولا حرفاً .

(١) انظر مقدمة د. المسور لكتاب والده د. سيد أحمد رمضان المسور « السيرة مع

القرآن » / دار الندي / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م / ٢٣ وما بعدها .

(٢) وهو عنوان لا على الفصل وحده بل أيضاً على الخزي والعار اللذين جاء بهما الكاتب حين استخفم هذه الكلمة ظناً منه أنها تعني « القيام » (أي النسي المتظر) ، بينما هي تعني « القيَام » كما سلف بيانه .

ومع تقديرنا للبحاث الذين أجهدوا أنفسهم لإثبات أنه لم يكن أميا بل كان يعرف القراءة والكتابة فإننا نرى أن ما طرحوه لا يمدو أن يكون قرائن لا ترقى إلى رتبة الأدلة^(١).

وبلاحظ القارئ الكريم أن الكاتب يبدأ كلامه بأنه « يؤمن ... الخ » ، وهذا كلام فارغ ، فهو لا يؤمن بأى شيء فى هذه القضية ولا فى غيرها بل مرة يقول بهذا رأى ، ومرة يقول بعكسه ، أى أنه كالريشة فى مهب الريح . ذلك أنه يعتمد هنا فى القول بعدم معرفة الرسول عليه السلام القراءة والكتابة على وصف القرآن له ولقومه بالأمية ، أى أن الأمية إنما تعنى عنده عدم القراءة والكتابة^(٢) . لكن تحليل عبد الكريم ، فى أسد الحوارات الصحفية ، يقول بعكس ذلك تماما ، إذ فسر الأمية الواردة فى القرآن بأن المقصود بها الإشارة إلى الأم الأخرى من غير اليهود ، أى الأمم التى لم ينزل عليها كتاب سماوى^(٣) ، على حين أن الكتاب الأخير يحمل بعنف على من

(١) ص ١٥ .

(٢) ص ١٥ - ١٦ .

(٣) انظر الحوار الصحفى الذى أجراه معه أهب من شرف فى صحيفة « الدستور » /

٢٨ يناير ١٩٩٨م / ص ١٦ .

يفسرون الأمية بهذا المعنى . فأتين الإيمان هنا ؟ وما هذه التفتحة
الكلمة الفارغة في استخلم ضمير الجمع ؟ نحن ؟

وبالمثل يجد القارئ في كتاب « شلو الريابة بأحوال مجتمع
الصحابه - محمد والصحابه » ، الذى يحمل اسم « خليل عبد
الكريم » أيضاً إلهاماً للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان يحرص
على الاطلاع على الكثر المعروف الذى التمسنى الذى كان فى جمعة
سلمان الفارسى ليمتحن به فى صناعة القرآن ^(١) . فلماذا يحرص
النبي على الاختلاء بسلمان طوال الليل فى ربه صلى الله عليه وسلم
إذا كان ورقة وعديجة حسبما جاء فى الكتاب الذى بين أيدينا قد
ظلا يعلماه ويقرآن عليه الكتب الدينية وشرحاتها له ويستعملانه ما
سمع نحو خمسة عشر عاماً إلى أن تأكد لهما أنه قد تمت (كما
يقول الكتاب التافه السخيف) برمجته بما لقناه إياه حتى صار لا
يحرم منه شيئاً بسبب فأكبره الحديدية التى لم يكن يغفلت منها
شيء ؟

وفى الصفحة التاسعة عشرة نراه يؤكد أن تجربة تصنيع اليسى التى

(١) ص ١١٤ من الكتاب المذكور / سينا والانتشار العربى / ١٩٩٧ م / ١٤١

قامت بها خديجة ورققة لا تنفى جانبها القبيح ، إذ لا تعارض بين
الأمرين ، لكنه بعد قليل يبين أن الإيمان بالخوارق والمعجزات (التى
يسمونها مغايرق وشبهات ، وهى تسمية لها دلالتها المفضوحة التى لا
تخفى على أحد) هو جزء من ثقافة البيعة العربية المتخلفة ينهى أن
يؤخذ فى الحساب عند الكلام عن هذه البيعة . وزاد فنفى فى
الصفحة الخامسة والستين بعد المائة أن تكون حادثة النار (وهى
الحادثة التى توجت جهود ورققة وخديجة مع محمد بالنجاح الساحق
حسبما يدعى هذا البشر المحترق) من الخوارق بل هى نتيجة المجهود
البشرى الذى قام به الاثنان . وهو ، كما ترى ، تناقض فيج صارخ .
ويزيده فجاجة صراخ المؤلف المستمر عن موضوعيته ورزقته العلمية
الثابتة التى لا يغير منها الماء ١

كذلك نلقى الكاتب فى الصفحة التاسعة عشرة يصف النبى عليه
السلام بأنه كان أمام خديجة ابناً لها خاضعاً مطلقاً لا يعرف إلا
الطاعة والموافقة لا زوجاً متساوياً جدلاً ، مؤكداً أن هذا النموذج
السهل الخبيث هو النموذج المطلوب لإجماع التجربة التى أرادت
خديجة من خلالها تصنيبه صلى الله عليه وسلم نبياً ، ليعود فيقلب
على نفسه بعد سطور قليلة إن خديجة كانت تريد ممن يشاركونها

التجربة (أى من محمد صلى الله عليه وسلم) أن يصير ضريباً لها فى الحرم والعزم^(١) . بل إنه ليُلجّ على أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بمقبرة عجيبة وأخلاق سامية مذهشة وخصائص باهرة لا يتصف بها أى إنسان غيره ، لأنه قد فهد فى بابه^(٢) . فمن الواضح أن كلام الكاتب فى هذا الموضوع هو ، رغم الطنطنات والحلقات ، رجراج سخيف لا قيمة له !

والمؤلف يمدى ويعيد فى القول بأن ورقة وخديجة قد تعاونا إلى أقصى مدى بهدف تثقيف محمد (أو قُلُوبُهُ وصَنَفَرُهُ وتلميذه ، بلغة المساطيل التى يبحّ بها الكتاب) ، ونحن بدورنا نسأله : إذا كنت أنت نفسك قد قلت إن ورقة أراد قبلاً أن يتزوج خديجة لكنه لم يوفق إلى ذلك ، وإن أخته قتيلة الكاهنة قد حاولت أن يعاشرها عبد الله (والد الرسول عليه السلام) كيما ينتقل إليها النور القدسى الذى كان فى وجهه فصدها وذهب إلى أمة روجته فعاشرها فحملت منه بالقادم المنتظر^(٣) ، فكيف يمكن أن ينسى ورقة هذا كله ويمدّ يد

(١) ص ١٩ - ٢٠

(٢) ص ٣٧ - ٣٨ ، ١٩٢ مثلاً .

(٣) ص ٣٦ .

التعاون إلى خديجة ليصع من محمد نبيا رغم أنه قد نال هو وأخته على يده ويد أبيه القهر والهزيمة المذلّة ، ما دامت المسألة كلها تدبيرا بشريا لا دخل فيه للسماء ولا للخوف من الله أو الرجاء في ثوابه ؟ أرجو من أحد العقلاء أن يحفّ لنجدتي فقد احتار دليلي مع هذا المبشر المستحفي الذي بلعنى أن بعض الناس قد قال عنه إنه يكتب بيديه ورجليه ، بينما أرى أنا أنه إنما يكتب ، ويفكر أيضا ، بحواره !

وقد مرّ بنا فيما سلف من صفحات ما قاله المؤلف في موضع من كتابه من أن خديجة قد « جفّ ريقها وحفيت قدمها وداحت السبع دوحات .. حتى وافق إمام الأولين والآخرين على خطبتها فكأحباء » ، وسأقت إلى محمد المراسيل من ذكور وإناث وأحرار وعبيد وموال وأقارب وأبعاد ، وظلت تحاصره إلى أن سلّم لها ورفع الراية البيضاء بعد « عصلجة » منه شديدة ورضى أن يتزوجها ^(١) ولكننا سمعنا في موضع آخر من ذات الكتاب بعدد الفوارق التي تميز خديجة على محمد في الحسب والمال والخبرة والثقافة ، ثم يختم قائلا إن محمدا لم يكن يصدق أن خديجة ترضى بالزواج منه ^(٢)

(١) ص ٢٩ ، ٤١ - ٤٢ ، ٥١ - ٥٢ ، ٦٤ - ٦٦ ، ٣١٠ .

(٢) ص ٢٨٩ .

فبأي الكلامين نأخذ؟ حسبنا الله ، وبعم الوكيل !

ومن تناقضات الكاتب أيضاً تأكيداً أن العبيد المكيبين النصارى المعاصرين للرسول عليه السلام « كان فى لهجتهم أو لغتهم عجمة ، وفى لسانهم حُكْلَةٌ مما يجعلهم عاجزين أو معوقين عن نقل ما لديهم من علم . هذا مع التسليم الجدلى البَحْت بأنهم يحوزون علماً . وحقيقة أن محمداً ، بما أوتى من فصاحة وِدْرَق من بلاغة وِنْفَح من لَسَنِ وَمُنْح من ذِراية ، كان فى مقدوره ترجمة ما يتلقاه منهم إلى اللسان العربى المبين . يَبْدُ أن للمشكلة الكبرى تكمن فى البداية ، وهى صعوبة أو عُسْر توصيل ما عندهم من معارف إلى محمد . وهذا مُشَاهَدٌ فِيمَنْ يريد أن يشرح وجهة نظره بلغة لا يجيدها فيعسر عليه ذلك » (١) . عظيم ، ولكن ماذا نعمل فى النص التالى الذى كتبه المؤلف فى موضع آخر من كتابه والذى يقول فيه عن هؤلاء العبيد أنفسهم : « لا شك أنه دارت حوارات بينهم وبين ساداتهم ، وبعضهم بلغ درجة لا بأس بها من الثقافة الدينية مع إجادته القراءة والكتابة ، وتملك أو حاز نَصْرٌ منهم إصحاحاتٍ وأبماضاً من الإنجيل

(١) ص ١٧ .

... ومنهم من كان يشرح لمبادئهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ويقصّون عليهم ما حفظوه وروّعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين ^(١). والآن ما العمل ؟ أنقول إن الكلام الأول كان في الصفحة السابعة عشرة ، على حين أن الكلام الثانى موجود فى الصفحة السادسة والأربعين بعد المائة ، فالمسافة بين الصفحتين من الطول إذن بحيث نسمح لأولئك المبيد أن يتغلبوا على عجمتهم وحكلتهم وأن يتعلموا العربية ويحسنوا الحديث والتعبير بها عن أعقد الأفكار والمشاعر ؟ ولم لا ؟ إن الفرق بين الموضوعين هو مائة وثلاثون صفحة ، كل صفحة تنطع صبعة ، وهو فرق هائل يمكن أن تتحقق فيه المعجزات !

ومما يلفت النظر أيضاً الحملة العنيفة الشعواء التى يشنها المؤلف فى عدة مواضع من كتابه على المستشرقين مُسَفِّهاً لمقولهم وأفكارهم ، ومتّهما لهم بالجهل باللسان العربى والعجز عن فهم الكتب العربية فهماً صحيحاً ، وداعياً إياهم إلى أن يأتوا فيجثوا بين يديه ليرتشفوا من رحيق علمه الصافى ، وضاحكاً منهم ومن جهلهم

(١) ص ١٤٦ - ١٤٧ الجزء الذى تحته خط نقله الكاتب من د. جواد على .

لدرجة « الاستلقاء على القفا » حسب تعبيره ، وناعياً عليهم « عباطتهم » واتعلق بصائرهم ^(١) . وقارئ هذا الكلام لن يصدق أن صاحبه هو هو نفسه الذي رفعهم إلى أعلى عليين في كتاب آخر من الكتب التي تحمل اسم خليل عبد الكريم أيضاً ، وإن استثنى من هذا التمجيد الطائفة التي أسلمت منهم ، إذ رماها بالفجاجة والضمور الفكرى والهزال ^(٢) . فالمسألة عند صاحب هذه الكتب ، كما هو واضح ، ليست مسألة تحقيق علمي موضوعي بل مسألة حالات لا ضابط لها ولا رابط ، اللهم إلا كرهه للقاتل للإسلام ونبيه ورموزه الأطلهار الشرفاء . والحالة التي بين أيدينا الآن تستلزم التطاول على المستشرقين من أجل إيهام القارئ المسلم أن الكاتب يعادى الاستشراق ولا ينطلق من نقطة الكراهية لدين محمد .

ولا مانع عند المستشرقين أن يُقَال من شأنهم ظاهرياً ما دام الهدف الذي يصبو الكتاب إليه سهامه السامة هو نفس الهدف الذي يتغيرون ، وهو ضرب الإسلام في مقتل . وإذا كان الكتاب يتضمن

(١) ص ١٦ ، ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ٢٩٢ .

(٢) انظر : شدو الزبابة بأحوال مجتمع الصحابة - محمد والصحابة ، ١٦٦ / -

كل هذا القدر الهائل البشع من البذاء والاستهزاء بمحمد ، فلا مانع أن ينال المستشرقين شيء من تقليل الشأن الذي يُعدّ ، بالقياس إلى ما وُجّه إلى الرسول الأكرم ، دغدغة من الحبيب لحبيبه . ومع ذلك كله فإن اللعبة مكشوفة بل مفضوحة لا تجوز على أحد !

ونمضي مع مخازي الكتاب الأخرى ، بيد أننا لن نتناول إلا هيئة محدودة من ألوان الخَبَل الفكري التي يفيض بها . ونبدأ بالسؤال التالي ، وهو يتعلق بالفكرة الأساسية التي يدور عليها فنقول : إذا كانت خديجة تؤمن بأن هناك نبيا قادمًا فكيف يخطر في ذهنها مجرد خُطوئ أن تقوم هي بتعليمه وتدريبه وثقيفه وتوجيهه أو ، حسب لغة الحشاشين والحوذبة ، بـ « صَنَفَرَه وَقَلَوَظَتَه وتلميعة » ؟ كيف يا ترى يمكن لبشر عادي ، بالفا ما يبلغ تفوقه العقلي وسموّه النفسي وامتنازه الخلقى ، أن يصنع نبيا ؟ أرادت بعملية « الصنفرة والقلوطة والتلميع » أن تتدارك مقدّما ما يمكن أن يقع فيه الله سبحانه وتعالى من سهو أو مسيان فيُخرج نبيه من تحت يده غير مُصَنَّفَرٍ أو مُقَلَوَظٍ ؟ أأنا في حلم أم في علم يا إلهي ؟ أهذا كلام يقوله بشر ، أم نعيم مما تصيح به البقر ؟ وحتى لو جارينا أصحاب هذا التفكير (أو بالحرى :

«التعير» ، فهل تستغرق هذه العملية ، وبالذات مع شخص عبقرى كمحمد (حسبما وصفه الكتاب مرارا) ، خمسة عشر عاماً ؟ إن المقصود بالتثقيف هنا هو قراءة التوراة والإنجيل عليه وشرحهما له ، فما الذى فىهما مما يمكن أن يستغرق شرحه وفهمه خمسة عشر عاماً ، ومحمد ، طبقاً لشهادة ذلك المبشر له أكثر من مرة ، كان كالكمبيوتر فى الحفظ والاستيعاب والقابلية للبرمجة ؟ والله لو كان كمبيوتر وزارة الداخلية ذاته الذى تهمه صحف المعارضة بالضللال المبين ما أخذت منه المسألة خمس عشرة ثانية ! ثم لماذا لم تُحضِر له مدرساً خصوصياً يعلمه القراءة والكتابة ليقرأ الكتب بنفسه بدلاً من «خونة الدماغ» التى كانت تنكدها ؟ ألم أقل إن المبشر الذى ألف هذا الكتاب إنما يفكر بحوافره ؟

إنى دائماً ما أقول إن أهل الغرب ذور عقول منظمة وتفكير مستقيم ، إلا أن يُذكر أمامهم محمد ، فعندئذ يرتدون كأطفال فتتألم عقولهم وتنفأى ! إن ذكر محمد أمامهم يشلّ منهم الأذهان ! ولا فأنشدك الله أيها القارئ أن تحاول تفسير هذا البراز الذى يُلطخون به الأوراق كلما أرادوا أن يتحدثوا عن الإسلام . إنك تنظر إليهم ، وهم يتحدثون فى أى موضع خلا الإسلام ونبى الإسلام ، فتجد لهم

فى وجوههم أفواها ، وتنصت إلى هذه الأفواه فتجدها تصدر كلاما ، لكن ما إن يتحول الحديث إلى محمد حتى تفاجأ بأن هذه الأفواه قد انقلبت إلى أمتاء لا يصدر عنها إلا الضراوط والخراء ! ثم تسأل آخر : إذا كانت خديجة تستطيع أن تصنع نبيا ، فلماذا لم تحاول أن تجعل من نفسها هى نبيه بدلا من تجسّم عناء القراءة والشرح والتسميع ... إلخ خمس عشرة سنة مع محمد ؟ لقد زعم المؤلف أنها كانت نصرانية . والنصارى (واليهود أيضا) ، كما هو معروف ، يؤمنون بوجود نساء نبيات كسارة زوجة إبراهيم عليه السلام ، ومريم أخت هارون وموسى ، وحنة أم يحيى ^(١) ، أفلم يكن أجدر بها وأبلى بحصافتها وحزمها وعزمها أن تضيف اسمها إلى قائمة النبيات لدى أهل الكتاب ما دامت النبوة بهذا اليسر عند صاحبها ؟ أفلم تكن

(١) فى كتابى « مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى » (نشر مكتبة زهراء الشرق) فصل بصوان « نبوة النساء » فتدّعت فيه اعتقاد أهل الكتاب فى نبوة النساء من قلب الكتاب المقدس معه . فأتانا إذن من لا يوافقون على القول بأنه كانت هناك نساء نبيات ، لكننى هنا إنما أجرى مع المؤلف فيما يقول وأنطلق من نفسى منطلقه ، وهذه غاية المسامحة من جانبى ، بيد أن الطرق دائما ما تكون مسدودة فى وجهه رغم ذلك .

مشقة (ومن الإنتلجسيا أيضاً) كما يقول المتفهب الوخيم الثقيل
الظل؟ (١) أفلم تكن طاهرة (بل « الطاهرة » بألف ولام الماهية) ؟
أفلم تكن رجلة العزم قوية الشكيمة كما جاء في الصفحة التاسعة
والعشرين ؟ أفلم يكن أمثلها ومتى عينها أن تقوم بصنع نبي ؟
فما الذى منعها أن تجعل من نفسها النبوة المنتظرة ؟ إن هذا يذكرنا
بـ « أذنك من أين يا جحا ؟ » .

بل دعونا من هذا كله ونمالوا نسأل : لماذا أرادت خديجة أصلاً
أن تصنع نبيا ما دام الأمر كله تدييرا بشريا ؟ وأى تديير ؟ تديير هو
إلى التأسر أقرب منه إلى استقامة الخلق والضمير . إن هذا يذكرنا
بالمثل القائل : « من له مال يحبّه ، يشتري حماما ويطيره » !
فخديجة ، حسب هذه النظرية السقيمة الرذيلة وذالة عقل صاحبها ،
كان عندها مال لا يخصى ولا يمدّ ، وكانت لا تعرف ماذا تفعل به ،
فقالت ذات يوم فى عقل بالها ، وكانت وحدها فى البيت لا تجد ما
نفعله : « ما رأيك يا بنت يا خديجة ؟ أنت تسمعين الناس هذه الأيام
فى كل مكان يتحدثون عن القادم المنتظر ، فماذا لو بادرتهم أنتِ

(١) ص ٩ ، ١٩١ ... إلخ

وانفقت مع ابن عمك ورقة بن نوفل مدير « مصنع تجميع وتركيب
وقلوطة الأنبياء - نوفل إخوان » على أن « يصنع » لك حجة نبي على
هواك ، « ويصنفره ويقلوطة » مع ضمان سنة ، ويوصله لك إلى
البيت فتضعه في البهو على يمين الداخل بعد « تلميعه » من غبار
الطريق لتكيدى به الموادل والأعدى من أمثال أم هانئ ؟ واللبى يا
خديجة لتكون هذه قبلة الموسم ! .

ألا خيبة الله على التافهين ! بالنزعة أهؤلاء رجال ؟ أم يمكن أن
يكون رجلاً من يقول عن سيد الأنبياء والمرسلين إنه بحاجة إلى
صنفرة وقلوطة وتلميع ؟ إن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يدور إلا
في است (لا في عقل) مبشر قد ثارت به وجعاؤه أياما وليالي ذات
عدد فلم يجد من يشفيه من دائها ! أنحزاكم الله أيها المبشرون
الماكيد ! إن من يئته من زجاج لا يرمى الجبال الرواسى السماء
بحجر ! ترى ما الذى يمنع الكاتب القلحاس أن يجعل من نفسه نبيا
ما دامت النبوة سهلة إلى هذا الحد ؟ فليرنا مهارته ، وما نحن أولاء
منتظرون ، وأيضا متيقنون أنه سيموت صغما بالنعال القديمة على
أيدي جماهير « المستضعفين فى الأرض » الذين يتفهبق بأنه وأمثاله

هم الناطقون باسمهم ، المدافعون عن مصالحهم ، الميئون في هواهم !
أوه ! لقد سينا للأسف في زحمة الكلام ورقة بن نوفل ، الذي
كان أستاذاً لأستاذة محمد وقسيساً لكنيسة مكة طبقاً للنظرية الرقعية .
فما ترى لماذا لم يتقدم هو ، وهو رجل جاهز وملء هدومه ثقافة
وإخلاصاً وتقوى ، ويعرف العبري (وربما السرياني والآرامي والعبري
وسائر اللغات السامية أيضاً) ، وترجم من الإنجيل إلى العربية
« ترجمة رائعة ودقيقة » (على حدّ وصف أحد النقاد المصريين لكل
ترجمة يكتب عنها رغم أنه لا يعرف أية لغة أجنبية) ، فينصب نفسه
نبياً ؟ ألم تكن خديجة تموت رغبةً في الفوز بالقادم المنتظر ؟ ألم
يكن هو يحب خديجة ويبغى الزواج منها فلم يوفق ؟ تاهت
ولقيناها ، فهذه هي الفرصة التي لا يبنى أن يضيعها من يديه بهذه
البساطة : يدعى النبوة ، ولن يحتاج الأمر عندئذ خمس عشرة سنة ولا
حتى خمس عشرة دقيقة لأنه ، كما قلت ، جاهز من فوره ، على
عكس محمد ، الذي يصوره لنا شذاذ التبشير فتى خاماً مليطاً من
الثقافة عرياً من التجربة والذي سيحشمه من تعب الإعداد ولزهاق
التدريب ما تضيق به الصدور . ما عليه إذن إلا أن يقول : أنا نبي ،
وموسى نبي ، وعيسى نبي ، وكل من له نبي يصلّي عليه ! فيرد عليه

جمهور أبرشيته في صحن كنيسة مكة قاتلين : « اللهم ، صل وسلم عليك يا نبي ! » ، وبهذا تفصّر السيرة كلها في لحظات !

ولكن قبل أن نترك ورقة نجب أن نقف وقفة عند قُسُومَتِهِ المزعومة . لقد ورد اسمه في بعض الروايات الإسلامية مصحوباً بلقب « القس » ، فهل كان ، رضى الله عنه ، قساً فعلاً ؟ لقد كان الرجل يعيش في مكة ، ولم تكن في مكة كنيسة على عكس ما يدعى مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده وكذلك صاحب « قس ونبي » (الذى يذكرنى عنوانه بـ « الراقصة والطبال » و « ياسين وبهية » و « حسن ونعمية » و « مبروك ومقبولة » وغيرها من عناوين الأفلام والتمثيليات المشابهة) ، وإلا فلماذا أحدهما على مكان تلك الكنيسة ، اللهم إلا إذا قال لنا إن ورقة كان يضعها دائماً في جيبه لا يخرجها ولا يريها لأحد في حلٍّ أو ترحال (لأنها أيضاً كانت كنيسة « نونو » كـ « المحفّظ » (بسلامته) الذى لا يستطيع التلفظ بالهاء فيقول « الأيكة » بدل « الهيئة ») ! وهأنذا أصعب بين يديه « دائرة المعارف الإسلامية : The Encyclopaedia of Islam » ، التى كتبها المستشرقون من يهود ونصارى وملاحدة ، فليدنا إن كان صادقا على أى موضع فيها يقول إن مكة كانت بها كنيسة .

إن المؤلف التحرير يزعم أن مكة كانت تعج بالنصارى^(١)، لكنه لم يجعل في ذلك إلى أي مرجع . أما أنا فيكفي أن أستشهد بلامنس المبشر الأسود القلب الذي يقول في كتابه "L' Islam - Croyances et Institutions" إن النصارى المكيين إبانته لم يكونوا يشكلون سوى حفنة ضئيلة . وهذا نص كلامه بالفرنسية : "A la Mecque , nous ne pouvons constater que l' existence d'une infime poignée née de chrétiens indigènes , à savoir qoraichites "^(٢) أن مثل هذا المبشر البلجيكي المتعصب أشد التعصب لنصرانيته لا يمكن أن يقلل من أعداد النصارى في مكة بأية حال . إذن فمزاعم صاحب " فترة التكوين " لا تزيد على كونها سمادير مما يشور في أذهان المساطيل ! ولا فأن كان هؤلاء النصارى حين هجم أبرهة بجيشه الجرار يتقدمه الفيل على مدينتهم ؟ أكانوا سيسكتون فلا ينضمون إليه ضد مواطنيهم الوثنيين ؟ أم على الأقل هل كانت الروايات تتجاهلهم هذا التجاهل التام ؟

(١) ص ٣٤٢ .

(٢) ص ٢٧ - ٢٨ / المطبعة الكاثوليكية بيروت / ١٩٢٦ م .

وقد مرّ بنا قول المدعوّ « أبا موسى الحريري » إن ورقة كان يتّمسّى إلى النصارى الإيسونيين الذين لم يكونوا يرون فى عيسى إلها أو ابن إله، وكان الإنجيل الذى يقرأونه هو « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، وهذا الإنجيل يخلو من عقيدة التثليث والصلب وما إلى ذلك . وهو نفسه ما جاء فى الكتاب الذى معاذرك التعلّل بالتعلّل^(١) . بل لقد ذهب إلى أن كل النصارى العرب كانوا من هذه الفرقة مستدلا على ذلك بأن القرآن الكريم لا يتحدث عن الأناجيل المتعددة التى بيد المسيحيين الآن بل عن إنجيل واحد هو الذى نزل على عيسى عليه السلام . وهو الإنجيل الذى كان يقرؤه ورقة وغيره من نصارى العرب^(٢) . ومن الممكن جدا فى رأى أن يكون ورقة وأمثاله هم وحدهم من موحدى النصارى دون سائر النصارى العرب ، وإلا فلو كان العرب جميعا على النصرانية الصحيحة التى أتى بها عيسى ، وكان كتابهم هو حقا الإنجيل الذى نزل على ذلك الرسول عليه السلام ، فكيف نعلّل هذا الهجوم الشديد الذى يُصلى به القرآن الكريم النصارى وإيمانهم بالوهية المسيح وصلبه ... إلخ منذ فترة

(١) انظر ص ٣٦ ، ١٤٤ ، ١٧٣ ، ٣٧١ مثلا .

(٢) ص ١٧٤ - ١٧٧ و غيرها .

مبكرة من الوحى المكسى كقوله تعالى عن ابن مريم عليه السلام:
 ﴿ قَالَ : إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابُ ، وَجَعَلْنِى نَبِىًّا * ... * ذَٰلِكَ
 عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ
 مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ ! إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ *
 وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ
 الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) ،
 وقوله عز شأنه حكاية لموقف الكفار حين رأوا الرسول محمدا عليه
 السلام ينكر عليهم شركهم : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ
 مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا : آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ،
 بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي
 إِسْرَءِيلَ ﴾ ... إلى أن يقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام :
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ
 الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .
 أما حديث القرآن عن إنجيل واحد لا عن أناجيل متعددة فسيبه أن الله

(١) مريم / ٣٠ - ٣٧ .

(٢) الزخرف / ٥٧ - ٦٥ .

سبحانه قد أنزل إنجيلًا واحدًا على عبده ونبيه عيسى لا عدة أنجيل ، فهو يحدثهم عما أنزله لا عما سطره بأيديهم وقالوا : « هذا من عند الله » ليشتروا به ثمنًا قليلًا . وهذا من الواضح بمكان ، لكن الضمائر الملتوية تسمى عنه عمدًا مع سبق الإصرار بغية إثارة الشكوك والعواصف .

أما لقب « القس » الذي كان يُطلق على ورقة فلا يخرج عن أن يكون إشارة إلى نقواه وقراءته الإنجيل^(١) ، فهو لَقَبٌ مَدْحِيٌّ لا اصطلاحِيٌّ . وعندنا أيضًا عبد الرحمن صاحب سلامة في العصر الأموي الذي كان يُلقَّب به عبد الرحمن القس ، رغم أنه كان مسلمًا . ومعروف أن « القس » في الأصل هو العالم عند النصارى ، ثم أصبح يدل على الرتبة الكنسية المعروفة . هذا هو وضع المسألة ، لكن سمادير الخمر لا تترك صاحبنا في حاله فيتمادى في دعاواه قائلًا إن ورقة ، حين عقد قران محمد على خديجة ، قد عقدته بصفته الكهنوتية^(٢) .

(١) بل إن بعض الدارسين يتكروون مجرد نصرانيته مستثنين في ذلك إلى حجج يؤكدون بها ما يقولون . انظر د. عويد بن عياد المطرفي / ورقة بن نودل في بطنان الجنة / رابطة العالم الإسلامي / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م / ٥٧ وما بعدها .

(٢) ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وهذا كذب صراح : فالرجل لم يكن قسًا كما أثبتنا لتونا . وثانيها
هى ذى العبارة التى استند إليها صاحبنا فى التدليل على أن خطبة
ورقة فى حفل الكاح المذكور كانت خطبة طقوسية . قال رضى الله
عنه : « قد رغبتنا فى حبلكم وشرفكم . فاشهدوا علىّ يا معاشر قرىش
بأنى زوجتُ خديجة من محمد » . فهل هذا ، بالله أيها القراء ، هو
الكلام الذى يقوله القسيس فى مثل هذه المناسبة ؟ هل يقول
القسيس لأهل الخاطب إننا نرغب فى حبلكم وشرفكم ؟ وهل يمكن
أن يكون ردّ ولىّ الخاطب على القسيس عندئذ . « قد أحببتُ أن
يشاركك عمها » كما قال أبو طالب لورقة بعد انتهائه من خطبته ،
اللهم إلا إذا قيل إن عمها كان هو أيضًا قسيسًا فأراد أبو طالب أن
تكون البركة مصاعفة ؟ أليست زيادة الخير خيرين على رأى المثل ؟
إن شرّ البلية حقًا ما يضحك ! طيب ، فأين الإكليل الذى تضعه
العروس المصرية على رأسها فى مثل هذه المناسبة ؟ وأين الرهت
المقدس الذى يمسح القسيس به العروسين ؟ وهل يمكن أن نصدق
أن خطبة قسيس فى عقد قران يمكن أن تخلو من ذكر الآب أو
المسيح أو الروح القدس أو البركة المقدسة أو أى شىء من هذا القبيل ؟
يا له من عرس مصراتى عجيب ! وهذا كله لو كان ورقة فعلاً هو

الذى تكلم باسم خديجة ، إذ الروايات الأخرى تقول إن أباها أو عمها هو الذى تولى ذلك ، لكن صاحبنا تجاهل هذا كله فلنا منه أن صنيعة ذاك سيوصله إلى غرضه ، ولكن هيهات ثم هيهات !

ومن المسائل التى تتعلق بورقة أيضا إطالة صاحب الكتاب الوقوف عند انقشاع الوحي عن رسول الله فى السنوات الأولى من بعثته وربطه بين ذلك وبين موت ورقة ربط العلة بالمعلول ^(١) ، مع أن الروايات التى اعتمد عليها تعطف الأمرين مجرد عطف بالوار بما لا يفيد تعليلا بل ولا ترتيبا زمنيا . يريد أن يقول إنه لما مات ورقة لم يعد هناك أحد يُمدِّ محمدٌ محمدا بما يقوله للناس مدعيا أنه وحى من السماء . وقد نسي الفلحاس أنه قال إن خديجة هى التى كانت تُمدُّ محمدا طوال الخمسة عشر عاما السابقة على البعثة ، فإذا أصفنا إليها السنوات التى مرت بعدها قبل أن يتوقف الوحي أصبح عندنا ما يقرب من عشرين عاما حسب ما أورده الفلحاس من روايات ، وإلا فالروايات الأخرى تقول إن توقف الوحي إنما تم بعد الدفقة الأولى منه . فإين الطنطنة التى أوجع دماغنا بها طوال الوقت عن خبرة خديجة وذكاه

خديجة وثقافة خديجة التي جعلتها واحدة من «إنتليجنسيا» زمانها
بجدارة واستحقاق ؟ ألا يكفيها هي ومحمدنا عشرون عاماً كي
يستطيعا الاستمرار في أداء مهمتهما دون الاعتماد على ورقة ؟
فكيف استأنفا عملهما بعد ذلك رغم أن ورقة بعد أن دُفِن لم يعد
إلى الحياة مرة أخرى ورغم أن الوحي بعدها أصبح أكثر موضوعات
وأعقد حجاجاً ؟ بل كيف استمر الوحي بعد موت خديجة نفسها
ثلاث عشرة سنة وقد ارداد تنوعاً وتعقيداً ؟ شيء واحد يستطيع المبرر
السخيف العقل أن يحاجاً به ، ألا وهو أن الشنطة التي كان يضع
فيها ورقة كتبه و مترجماته قد ذهبت عند تقسيم تركته إلى واحد من
الورقة يعرف قيمتها لأنه كان من « الإنتليجنسيا الطليعيين » فرفض
أن يعطيها لخديجة إلا بعد مساومات ومداولات استغرقت وقتاً طويلاً ،
فلما استقرت « شنطة ورقة » (ورقة من ؟ صاحب الشنطة طبعاً)
في يد خديجة عاد الوحي يتدفق من جديد ، وانطلقت جماهير
« الترسو » تصفق لهذه النهاية السعيدة للفيلم بعد أن علن القلق
أنفاسها وقتاً طويلاً . هل رأى أحد رقاعة بهذه الغثاثة ؟ وبالماسبة
هناك كتب أخرى مبكرة في السيرة والتاريخ لا تذكر موت ورقة مع
توقف الوحي بأية حال ، لكنني لن أقف عند هذا .

ويرتبط بهذه النقطة زعم آخر ، فقد تفلحس المبشر المستخفي مؤكداً أن السر في عدم زواج الرسول على خديجة هو أنها كانت نصرانية ككثير من قومها بنى أسد ، والنصارى لا يعرفون تعدد الزوجات . قال ذلك مختالاً متفشاً بمبقرته التي فطنته لما لم يظن إليه أحد من قبل من عرب وعجم وفرجة^(١) كما قال ، مع أنه هنا أيضاً إنما يردّد كلام المدعوّة أبا موسى الحريري ، ألم إنه لم يكتف بذلك بل تحيل حواراً بين محمد وخديجة يقول فيه : « حتى لو فرضنا فرضاً جديلاً أنه فكر في ذلك (أى فى الزواج عليها بأخرى) ، فإن الرد سوف يجرى من الطاهرة أم هند : أذكرك يا أبا القاسم (هكذا دأبت على مناداته أ. هـ) بأن ثقافتنا الدينية تحظره حظراً باتاً . وماذا يقول بحيرا وورقة وعداس وناضح وميسرة عنى ؟^(٢) . يا فجورك يا أخى ! أنا أقول لك ماذا سيقول بحيرا وورقة وعداس وناضح وميسرة . سيقولون إن ملقّق هذا الكلام مبشر رقيق ! أرخمت ؟ انبسطت ؟ هداً باللك ؟ الحمد لله ! نعود إذن إلى ما كنا بسيله .

لقد فرغنا من أن عدد النصارى القرشيين فى مكة كلها كان لا

(١) من ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) من ٣١٤ - ٣١٥ .

يزيد على « حفنة ضئيلة » ، فما معنى العظمننة بأن كثيرين من بني أسد كانوا نصارى ؟ إن الروايات لا تذكر لنا منهم سوى اثنين لا غير هما ورقة وابن عمه عثمان بن الحويرث ، الذى ذهب إلى قيصر واقترح عليه أن يوليّه مكة ففعل ، فلما عاد ودعا قومه إلى النصرانية هبوا فى وجهه على بكرة أبيهم وطردوه شرّ طردة ^(١) مما يدل على أن هذه الديانة لم يكن لها أى ألباع تقريبا فى مكة . ثم إن خديجة ، كما يقول الفلاحاس ، قد تزوجت محمدا من أجل نصيبه نبيا ، أى أنها لم تكن راضية بنصرانيتها المزعومة بل تريد شيئا جديدا ، فكيف تحاجّه بها إذن ؟ إن هذا لهو الخبل بعينه ، وخديجة بنت خويلد أحصاف وأعقل وأكمل من ذاك !

والآن إلى القبيلة التى ستنزل على هذا السخف وتلك الرقاعة فتدمرها تدميرا . لقد تزوج كل من جدّ خديجة وأبيها وأعمامها نوفل وحبيب والمطلب وأخيها العوام أكثر من زوجة ، وبمعصم توسّع فى ذلك توسّعا ^(٢) . بل إن أخاها العوام قد خلف أباه على إحدى

(١) ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر « سب قریش » لمصعب الزيرى / تحقيق ليلى بروفسال / دار المعارف /

ط ٣ / ص ٢٢٨ وما بعدها ، و ٢٠٦ - ٢٠٧ ، و ٢١١ وما بعدها ، و ٢١٨ وما

بها ، و ٢٢٥ وما بعدها .

زوجاته^(١)، وهو أمر لا تقبله النصرانية . فمافا يقول أبو الفلاحيس
فى ذلك ؟

هذا ، ولعل القارئ العزيز قد لاحظ الإشارة التى وضعها المتنطع
الكذوب بين قومسين يهمز بها خديجة والنبي ، وهى الإشارة التى
يقول فيها إن خديجة قد «دأبت» على مناداة الرسول بـ « يا أبا
القاسم » ، والتى أوردعا بصورة أوضح قبل ذلك فى معرض المقارنة
بين عائشة وخديجة ، إذ يزعم أن الأولى كانت تناديه عليه السلام
بـ « يا رسول الله » ، أما خديجة فكانت مخاطبه بـ « يا أبا القاسم »
أو « يا محمد » إلا فى الشاذ النادر ، لأنها هى التى كانت «توجهه
وتطلب إليه وتشير عليه» ، على عكس عائشة التى كانت « تلبي
وتطيع وتمثل وتأنمر بأمره وتتفقد وتسمع ... إلخ » ، وهو الفرق الواضح
الذى لا يحتاج إلى زكاة لمعرفة أو حتى إلى لمس باليد بين خطاب
الهندوز واستجابة التلميذة « كما ذكر^(٢) . يريد أن يقول إن خديجة
لم تكن تعترف به رسولا ، إذ هى التى صنعتها يديها صنعا .

(١) ص ٢١١ .

(٢) ص ١٥٤ .

وهذا كلام ككلام القسحبة حين تريد مكابدة السيدة الحرة العفيفة فتقول لها بكل بجاجة ورقاحة وعلى ملا من الناس : « أنا أشرف منك سلوكا وأظهر أخلاقا » ، وهي تعرف أن صاحبة العصمة والشرف لن تردّ عليها . لكن الأمر عندنا أكبر من هذا الاعتبار ، ومن لم فلا بد من الردّ على هذا البراز الذي يسلّج به فم المبشر الكذاب : فخديجة ، حتى لو افترضنا أنها هي التي جعلت من محمد نبيا ، لا يمكن أن تفعل هذا . أليست هي التي حققت سعيًا من أجل الزواج به وتصويره نبيا حسب نظرية هذا المبشر الخسيس ؟ فكيف ، حينما نجحت أخيرا وبلغت هدفها بعد تعب خمسة عشر عاما ، تنقلب على عقبيها وتسكر لكل ما فعلته وبذلك وضحت به ؟ ولم إذن كان كفاح الأعرام الطويلة ؟ وفيما كان إنفاق الأموال الطائلة ؟ وما الحكمة من وراء كل ذلك التكنم الرهيب خوفا على زوجها أن يقتله أهل الكتاب إذا علموا أنه السبي المنتظر حسبما ذكر صاحبنا وكرّر ؟ والله إن مخلوقا يقول هذا عن خديجة لرقيع ! ولقد ردّد الفلحاس نفسه القول مرارا بأن سعادة خديجة بنجاح تجربتها مع محمد كانت لا توصف ولا تحدّ^(١) ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ ثم إن ما وصلنا من كلام

(١) ص ٣٣٩ ، ٣٦٨ مثلا .

حديجة إلى رسول الله قليل لا يسوِّغ أن نقول إنها رضى الله عنها قد « دأبت » على أن تناديه بهذه الطريقة أو بتلك ، لأن الأدب معناه العادة ، والعادة لا تصدِّق إلا على الأمر الذى يتكرر حدوثه كثيراً . كذلك فما من مرة نادى رضى الله عنها زوجها الكريم بعد الإسلام إلا وقالت له : « يا رسول الله » ، أما قبل البعثة فكانت تقول له : « يا أبا القاسم » أو « يا ابن عم » على قلة ذلك كما قلنا . وإلى القارئ شاهدك على كل من هذا وذاك :

فأما الشاهد الأول فمؤداه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى بداية ظهور جبريل له وقبل أن يتيقن أنه الوحي ، كان يقص على حديجة ما يسمعه ويراه ، فتقول له « استر يا ابن عم ، فوالله إني لأرجو أن يصنع الله بك خيراً » ^(١) . وأما الشاهد الخاص بمخاطبتها إياه بعد البعثة به « يا رسول الله » فيتلخص فى أنه حين مات ابنها عبد الله (بعد أشهر من وفاة أخيه القاسم) ، ولم يكن قد فُطم ، قالت : « يا رسول الله ، لو بقى حتى أفطمه ؟ قال : فإن فطامه فى الجنة » ^(٢) . وهذا هو الوضع الطبيعى والمنطقي ، فقبل النبوة لم يكن

(١) تاريخ البقومى / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م / ٢ / ٢٢ .

(٢) المرجع السابق / ٢ / ٣٢ .

من الممكن أن تلقّبه بها ، أما بعدها فما دامت قد صدّقته ودخلت
 في الدين الذي أتى به فكيف يمكن أن يدور في ذهنها هذا الذي
 يدّعيه عليها المبشر التالف فتستكف أن تعترف بأنه رسول من عند
 رب العالمين ؟

كذلك أثار الكتاب المستخفي غشياناً بادعائه المتن على مدار
 الكتاب كله بأن خديجة هي التي صنعت من محمد نبياً . فما العمل
 إذا قلنا له إن عدداً من إخوة خديجة قد تأخروا في الإيمان بنبوة
 محمد وحاربه ، بل إن بعضهم مات وهو كافر به^(١) ، ومع هذا لم
 نسمع أبداً منهم يرفع في وجهه صلى الله عليه وسلم هذا السلاح ؟
 أمن الممكن أن يصل الأمر بينه وبينهم إلى الحروب والدماء ، وبخاصة
 من لم يكونوا منهم لخديجة بأشقاء ، ثم لا يعايره أحد منهم بأن أحته
 هي التي نبأته وصنّفته وقلّوبته ؟ لقد قصرت القول هنا على إحوتها
 رضي الله عنها لأنى لو أدخلت معهم أمثال أبي لهب وأبي سفيان
 وأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد وغيرهم من الأباعد لقال الأبعد إن
 خديجة وورقة قد تكتما هذا الأمر تكتما . أما بالسبب لأقاربها فما

(١) نسب فريش / ٢٢٨ وما بعدها .

كان لهذا التكتّم أن يفلح مهما بالغت فيه واحتاطت له
والرّذل الفشيث يكذب ويدعى على طائفة من كُتّاب السيرة
ومذّاحى النّبى من الشعراء أنّهم قد لحوا إلى ما قاله هو فى كتابه من
أن خديجة هى صانعة النبى ومثقفته ومُهنّئته . قال هذا عن ورقة ،
وقاله عن البوصيرى ، وقاله عن طه حسين ، وقاله عن د. عبد الحليم
محمود ، وقاله عن غيرهم . ولأنه رقيق وضيق لا يستحى فقد أورد
من كتاباتهم النصوص التى رعم أنّها تشير إلى ما كانوا يمتقدونه
واكتفوا بالجمجمة فيه دون التصريح^(١) . وهذا جنون مطبق وسعار لا
سبيل إلى الشفاء منه ، إذ من ذا الذى يجرؤ على العبث بجهازها نهارا
بالنصوص التى تمدح النبى وتمجّده وتبديّ انبهارها برسائله صلى
الله عليه وسلم وتبشّى على خديجة لوقوفها إلى جانب زوجها وإيمانها
الراسخ به ودينه فيدّعى أنّها تومى إلى عكس ذلك تماما إلا واحد قد
فقد عقله وحياءه وبلغ من ذلك مدى لا يقبل علاجًا ولا برءًا ؟
وبالمناسبة فهو هنا يردّد ما قاله المدعو "أبا موسى الحريرى" ، كما
سلف الإيماء إليه .

(١) انظر ص ١٣٠ - ١٣١ ، ١٨٢ ، ٢٧٨ على سبيل المثال .

وسوف أسوق هذه النصوص التي فقد المبتشر الحقوق المهتاج رُشدَه
فزعم بشأنها المراجع . ونبدأ بالشعر المنسوب إلى ورقة ، ولا يهمنا
أكان هذا الشعر صحيحاً أم لا ، فمنهجى على طول هذه الدراسة هو
التسليم للمؤلف الحقوق بما يعتمد عليه من روايات حتى لو كان لى
رأى آخر فى وثاقتها ، وذلك حتى أبين للقارئ أن كلامه ، مع
المسامحة المطلقة من جانبنا ، هو كلام لا قيمة له لأنه ، كما قلت
مرارا ، لا يخرج من عقله بل من محرج آخر . وما هى ذى الآيات
التي أوردتها لورقة:

حتى خديجة تدعوى لأخبرها وما لها بغي الغيب من خبر
جاءت لتسألنى عنه لأخبرها أمرا أراه سيأتى الناس من آخر
وخبرتنى بأمر قد سمعت به فيما مضى من قديم الدهر والمضمر^(١)

فما الذى فى هذه الأبيات الثلاثة مما يمكن أن يتعلق به أى إنسان
يفهم الكلام بعقله لا بشيء آخر فى القول بأنه دليل لا يقبل الشك
على أن ورقة وخديجة قد « تعاضدا على إنجاز التجربة التى موضوعها
النبيذ / التجيب » ؟ أهذا غاية ما عد أعداء محمد والإسلام ؟ أهذا

هو الكلام الذى تنشأ له مؤسسات لنشره فى ورقٍ فاخر وإخراج قلم
رغم أن أحدا فى العادة لا يشتريه ؟ لقد رأيت بنفسى فى معرض
الكتاب أولاداً استأجرتهم إحدى دور النشر للصراخ بأعلى صوت
كالجنون الذى يعارك نفسه : « بَصْ ! شَفْ ! كُتِبْ فلان المصادرة !
بَصْ ! شَفْ ! كُتِبْ فلان المصادرة ! » ، ولم أر أحداً والله قد تعطف
والتفت إلى ما يقوله هؤلاء المساكين !

وبالنسبة للبوصيرى فقد نقل البشر الملتاث العقل أحياناً نسبها
مؤلف « السيرة الحلبية » إلى ذلك الشاعر مسمياً إياه بـ « صاحب
الهمزية » ، وهى تحدث عن الأسلوب الذى لجأت إليه السيدة خديجة
رضى الله عنها للتثبت من أن ما يراه الرسول عليه السلام ويسمعه
ملك لا شيطان ، فتبين لها أنه ملك لا يمكن أن يأتى إلا بالخير .
ووردت فى كلام البوصيرى كلمة « الكيحياء » ، فعرض عليها
مبشرين الأمين جداً بأنبياءه الرقء يريد أن يوهم القراء بأنها تشهد
بصحة ما قاله من أنها رضوان الله عليها كانت تقوم بتجاربها على
محمد كى تحلق منه نبيا ^(١) . أفليس يُجرى العلماء فى معاملهم ،
ضمن ما يُجرون ، « تجارب كيميائية » ؟ إذن فالبوصيرى عندما يذكر

(١) انظر ص ١٣٠ .

الكيمياء إنما يقصد هذه « التجربة » التي خاضتها أولي أسهات المؤمنين وخرجت منها بنى حسب نظرية ذلك المتفلسف . أرايتم ذكاء وأمانة كهذه الأمانة وذلك الدكاء ؟ لقد نظم البوصيري الذي كان يذوب حباً في سيدنا رسول الله همزته في نحو أربعمائة وخمسين بيتاً جعل فيها النبي عليه السلام سماء لا تطاولها أية سماء أخرى ولا يستطيع أحد غيره من الأنبياء أن يرقى رقبته ، وأكد أن كل نور في الكون إنما هو مستمد من نوره ، كما أفاض في الحديث عن معجزاته ، وصور جهاده العظيم في سبيل الإسلام ، ورد على مفتريات أهل الكتاب وهاجم معتقداتهم الكافرة ، وتشفع به عليه السلام كي يغفر الله له ذنوبه يوم القيامة ... إلخ ، فكيف يمكن أن يخطر في ذهن أي إنسان أن الرجل يمكن أن يميز النبي كما زعم المبشر الرقيع ؟ صدق رسولنا الأكرم : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . وبالمناسبة فأنا متأكد أن ذلك الحاقد لا يعرف أن البوصيري هو المراد بلقب « صاحب الهمزية » . وهذه هي الآيات المذكورة :

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| وأناه في بيتها جبرئيل | ولذي اللب في الأمور أرياء |
| فأما طلت عها الخمار لندري | أهو الوحي أم هو الإغماء |
| فاختفى عند كشفها الرأس جبر | فربل فما عباد أو أعياد العطاء |
| فاستبان خديجة أنه الكنـ | ز الذي حاولته والكيمياء |

والواقع أنه لو كان البوصيرى قد قال بدلا من « الكيمياء » :
 الفيزياء أو الأحياء ، أو حتى اللوياء أو الفاصولياء أو الذبأ (الذبأ
 هو القرع ، وكان سيدنا النبي عليه السلام يحبه) لكان كاتبها الهمام
 قد صباح بنفس الرقاعة قائلا . انظروا ! ها هو ذا الشاعر قد أشار إلى
 أن خديجة كانت تَعدُّ الطبخة لصنع نبي ، بالضبط كما تُطبخ اللوياء
 والفاصولياء ! ذلك أن أمثاله لا يقف أمامهم شيء ، فهم لا يبالون
 بالمنطق ولا بأمانة العلم ! إن حَقْدَ المستشرقين والمبشرين لا يعرفون
 الحياء ، إذ ليس عندهم (كما تقول اللغة الدارجة) « شيء من
 الأحمر » ! وعلى أية حال فليس المراد بلفظة « الكيمياء » هنا
 هو العلم المعروف الآن ، بل « الأكسير » حسبما كان العرب
 يستعملونها قديما . ومعنى « حاولته » : « رامته » . وعلى هذا
 فشرح البيت هو أن خديجة قد تيقنت بالطريقة المذكورة أن زوجها
 هو النبي المنتظر وليس أحدا غيره ، وهذا هو الكنز الروحي الذي
 يحرص أي إنسان نبيل على أن يحصل عليه . ولا علاقة لشيء من
 هذا ، كما ترى ، بالسخر الذي زعمه المبشر الجاهل . ترى لو
 كانت خديجة هي التي صنعت محمدا ، أكانت بحاجة إلى التحقق
 من صدق كونه هو النبي المنتظر ؟ بطبيعة الحال كلا ، إذ كيف

يستوى صدق وتزييف مصطنع ؟

ثم إن للهمزية عدة شروح ، ومنها شرح الإمام ابن حجر ، الذى لم يترك فيها شيئاً لا من جهة اللغة ولا من جهة السور والصرف ولا من جهة التاريخ ولا من جهة الدين ... إلخ إلا وأشيعة شرحاً وتحليلاً وتوضيحاً . فكيف فات ابن حجر ما زعمه المبشر الأفاك على البوصيرى رحمه الله ، وابن حجر إمام كبير من أئمة الدين ؟ كذلك توجد على شرح ابن حجر حاشية للشيخ محمد الحفنى مفعمة بالملاحظات على ما قال ابن حجر فى شرحه لا تكاد تترك منه شيئاً يستوجب التعليق إلا علق عليه . ومع ذلك فعبثاً نبحت فيها عن شئ من هذا الادعاء الوقح الذى بهت به صاحبنا الخادع الإمام البوصيرى . إن من المضحك المبكى أن نشغل أنفسنا بتفنيد هذا السخف التافه ، لكن ماذا نفعل وفى البشر حمقى وجهلاء يمكن أن يدخل عليهم هذا الهراء فيرددوه كالبغاوات إذا لم يجدوا من يتصدى له ويعرّبه ؟

أما د . طه فلم يقل المؤلف من كلامه إلا سطرًا تقريبًا ثم قطع النقل فجأة وأخذ يزعم ويصيح بما معناه : « انظروا . هذا هو عميد

الأدب العربي يقول إن خديجة هي التي صنعت محمداً وجعلت منه نبياً . لقد قُضِيَ الأمر وحُسمت المسألة ولم يعد هناك من شك في أن محمداً نبى مزيف . وهل يعد كلام العميد من كلام ؟ . وهو في هذا يشبه إنساناً مقلولاً معلولاً من رجل وامرأة شريفتين تصادف أن تقابلا بهراً في الطريق مجرد تقابل ثم مضى كل منهما لطريقته دون أن ينظر كل منهما للآخر ، فأخذ صاحبا بهصرخ بكل قواه : « انظروا يا ناس إلى هذين المجرمين ! ها هما ذان يمارسان الفاحشة علنا على قارعة الطريق ، فانزلوا وشاهدوهما بأعينكم وهما متلبسان بجريمتهما » . وينزل الناس فلا يرون زناً بل لا يجدون أحداً بالمرّة ، فيسألون عن سرّ إزعاجه إياهم دون سبب فلا يجدون منه إلا سحرة وقاحاً نفرى بضرب الحذاء ، لكنهم يعفون عن أن ينجسوا أحذيتهم بضربه . والآن مع كلام طه حسين . يقول الرجل : « لقد أحببت خديجة هذا الفتى منذ كان صبياً وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه وتتبع نموه واكتماله » ^(١) . فأين الكلام هنا عن التجربة التي مارستها خديجة بحق محمد ؟

إن الدكتور طه يقول إنها « جعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه » ، وهو ما لا معنى له إلا أنها لم تكن تلتفتي به أو تتحدث معه بل كانت تتبع أحباره من بعيد . والحمد لله أن هذا الكلام لم يُكتب في أيامنا هذه ، وإلا لقال المبشر المحترق إن المقصود أنها كانت تدير تجارتها بـ « الريموت كنترول : Remote Control » ! ومرة أخرى ترانى أيها القارئ العزيز أقف عند كلام د. طه حسين دون أن أساءل عن المصدر الذى استقاء منه ولا عن مدى أهلية هذا المصدر للثقة ، بل أخذته مأخذ التسليم . ولقد رأيت بنفسك مدى الفجور الذى بلغه ادعاء المؤلف بشأن هذا النص أيضا .

ونفس الشيء يفعله هذا الأفاك البَجج بالسطور التالية التى يقول فيها الرجل الشريف د. عبد الحليم محمود : « وعاش معها (أى الرسول مع خديجة) زهاء خمس وعشرين سنة دون أن يجمع معها زوجة أخرى ، وكانت أحب الناس إليه وأقربهم إلى نفسه صلى الله عليه وسلم لإيمانها العميق ووفائها النادر وحرصها التام على ما يرضى الله تعالى ويرضى رسوله صلى الله عليه وسلم » (١) . إن

(١) ص ٢٧٨ .

النص، كما هو واضح بين حتى للأعمى ، يؤكد إيمانها العميق وحرصها التام على مرضاة الله ورسوله ، أما علوج التبشير المستخفون في طيات الظلام فيقولون إن في لنايا كلام شيخ الأزهر ، تلميحاً ولو من بعيد إلى دور الهندوز في إنجاز أروع التجارب التي حظيَ بِمُحَدِّثِهَا في تضاعيفه القرن السابع الميلادي^(١) . هل تجدون أيها القراء الكرام فرقاً بين صاحب هذا الكلام والمفلول المفلول الذي ادعى على الرجل والمرأة الشريفين ما ادعى ؟ أفلو كان الإمام الأكبر قد قصد شيئاً من هذا أكان المبشر الوضيع يتناول على شخصه الكريم كما سبق أن ذكرنا ؟

ولا يكتفى الفلحاس بهذا بل يتطال إلى تفسير القرآن الكريم . ألا إن هذا لعجيب ! إن عند الإنجليز عبارة يفسرون بها المثل في استحالة وقوع الأمر فيقولون : « Pigs might fly » ، أى مسن الممكن جداً أن تطير الخنازير . لكن قد يحدث فعلاً أن تطير الخنازير كما هو الحال عند حدوث دوامة هوائية عنيفة مثلاً ، أما أن يفسر مبشرٌ محترقٌ جهولٌ القرآن فهذا هو العجيب الغريب حقاً . ومع ذلك

هيا بنا نسمع ما يقول .

لقد فسر قوله تعالى في سورة « الفرقان » عن الكافرين المكذبين برسالة محمد من أهل مكة : ﴿ وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ... ٢ ﴾ بأن المراد أن خديجة كانت تطعمه وتغنيه عن السعى وراء المعاش (فهذا في رأيه معنى قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ٢ ») ، وأنهم كانوا مدركين لهدفه من وراء غشيان الأسواق ، ألا وهو الاختلاط بأهل الأديان المختلفة والسماع منهم ومناقشتهم كي يكتسب العلم والثقافة على أيديهم (وهذا في رأيه معنى قولهم : « ما له يمشى في الأسواق ٢ ») . ثم أخذ يتعالم ويستمع بأنفه على المصرين متهما لياهم بالجهل والبلادة العقلية والنقش من بعضهم البعض ومؤكدا أن تفسيره للآية هو وحده التفسير الذي يصح^(١) . فبالله عليك أيها القارئ الكريم (واعذرني أني أرهقتك معي بكثرة مناداتي لك واستغاثتي بك لتشهد على هذا الجهل المبين) ، بالله عليك هل يمكن أن يكون معنى قول الكفار للنبي عليه الصلاة والسلام : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى

فى الأسواق ... ؟» هو هذا القىء الذى يتحفظنا به ذلك المبشر
 الخميس ؟ لو كان ما يقوله صحيحاً لقد كان ينبى أن يجىء
 اعتراضهم على النحو التالى : « ما لهذا الرسول يأكل طعام خديجة
 ولا يسعى على رزقه بنفسه ؟ » . لقد كانوا ، فى الواقع ، يتكرو
 عليه الأكل مطلقاً ، إذ كانوا يستغربون أن يكون الرسول الذى يتصل
 بالسماء بشراً من البشر ، فهذا معنى استنكارهم أنه يأكل كما يأكل
 الناس ، ويمشى فى الأسواق كما يمشون . لقد كانوا يهودونه ملكاً
 من الملائكة أو أن ينزل معه على الأقل واحد منهم فيروّه عياناً بيانا ،
 أو يدعو الله فيرسل له كنزاً من الذهب والفضة والجواهر الثمينة لا
 يتفد ... إلخ كما جاء عقب هذه الآية . فاعتراضهم إذن اعتراض
 على بشرته وخضوعه مثل سائر البشر لقوانين الكون فى كسب المال
 بحيث لا يستطيع أن يحوز شيئاً منه إلا بالاشتغال مثلهم بحرفة من
 الحرف .

والذليل على صحة هذا التفسير قوله تعالى فى نفس السورة بعد
 عدة سطور : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام
 ويمشون فى الأسواق » ، إلا إذا طلع علينا « بسلامته » فقال إن كل
 الرسل كانوا يعيشون على أموال زوجاتهم ، وكانوا يترددون جميعاً

على سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز ليستمعوا إلى ما يقوله القساوسة والأخبار . ويدور فى هذا المدار قوله عز شأنه فى آخر سورة « الرعد » :
 « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » ، فهذه الآية أيضاً تردّ على استنكار من أتكر على الرسول أن يتزوج ويكون له أولاد كسائر البشر . وعلى أية حال فإن التردّد على الأسواق الذى يدعى مؤلف الكتاب أن محمداً كان يمارسه بغية التزود من الثقافات الدينية المختلفة على يد من يرتادها من الأخبار والرهبان ، والذى يقول إن خديجة هى التى أمرته به ، إنما كان قبل البعثة حسبما قال بعظمة لسانه الذى يستحق أن يُقَطَّع من جذوره ويرمى للكلاب ، أما الآية الكريمة التى بين أيدينا فتتنمى بطبيعة الحال إلى ما بعد البعثة بزمان غير قصير لأن سورة « الفرقان » ليست من سور الوحي الأول .
 أى أن ما يقوله هو هراء فى الهواء !

وعجيبٌ جدُّ عجيب أن يتناول مثله إلى تفسير القرآن ، وهذا هو أسلوبه ومستواه فى لغة القرآن ! وأعجب منه أن يأخذ فى الهمز واللمز والتلميح إلى أن القرآن هو من عند رسول الله ، الذى حرص على وصفه فى هذا السياق بالتفوق فى معراج الفصاحة ، وإن أرجعها فى ذات الوقت إلى تنشعته فى بنى سعد وحدها نافية أن يكون لله دخل

فى ذلك على أى نحو . وسرّ حرصه على الإشادة ببلاغة رسول الله عليه السلام ليس حبّه له ، فهو بمقتته مقتنا شنيعا لم أر أحدا غيره بمقتته إياه ، بل رَغْبَتَه فى القول بأن القرآن إذا كان فصيحاً فذلك راجع إلى فصاحة محمد ^(١) . والحق إن مثل هذه المسألة لهى أرقى من أن يتناول إلى الحديث فيها أى أحقّ جهول . ولن نطيل القول فى هذا الموضوع بل نكتفى بإحالة القارئ الكريم إلى الدراسة التى صدرت لصاحب هذه السطور حديثاً فى نحو ستُمائة صفحة بعنوان « القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية » ^(٢) ، وسوف يجد ما أثبتنا الإحصاءات والمقارنات الأسلوبية بين القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فى الألفاظ والصيغ والتراكيب والعبارات والصُور والقسم وأسماء الأعلام والبنية القصصية وغير ذلك من أن الأسلوبين مختلفان تمام الاختلاف مما يقطع بأن القرآن لا يمكن أن يكون من عند محمد . وهذه الدراسة - رغم ذلك ، ليست إلا أول الغيث فى هذا المجال ، والأمل معقود على من يأتون بعد هذا فيتوسعون فى دراسة ذلك الموضوع مستعينين بالحاسوب والرياضيات الحديثة . أما

(١) ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٢) نشر مكتبة زهراء الشرق .

كلام المصاطب الذى يردده الرقماء الجهلاء فمكانه تحت الحذاء .
 وبعد ، فقد أن الأوان أن نُجَلِّس مبشرنا الفلحاس على الخازوق .
 لقد زعم العبقري الهمام أن الذين صنعوا محمدا هم ورقة وخديجة
 وعداس وأبو بكر . لكننا جميعا نعرف أن هؤلاء كلهم قد آمنوا به
 صلى الله عليه وسلم وأحبوه وأجلوه وأسكنوه داخل حبات عيونهم .
 أم تراه سيقول إنه سقاهم « حاجة أصفرة » وضحك عليهم وأدخلهم
 فى دينه دون أن يشعروا ؟ إن الإنسان ليتساءل : لم يا ترى كل هذا
 الحقد على سيد الأنبياء ودينه ، وبخاصه فى عصرنا هذا ، عصر العلم
 الذى كرمه دين محمد نكريما لا يضرب له فى أى دين أو مذهب
 فلسفى أو تربوى آخر ؟ إن من غرغ فى طلب العلم فهو (حسبما
 يقول الرسول الكريم) فى سبيل الله حتى يرجع ، وإن العلماء هم
 ورثة الأنبياء ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما
 يصنع ، وإن مداد العلماء يُوزَن بدماء الشهداء ، وإن فضل العالم على
 العابد كفضل البدر على سائر الكواكب ، وإن من اجتهد فى مسألة
 من المسائل فأخطأ فله أجر ... إلخ ، إلخ إن كان لذلك من آخر .
 فما الذى فى هذا يا إلهى (وما هذا إلا نقطة واحدة من بحر زخار
 موار) مما يمكن أن يبعث على الكفر بمحمد أو التنقص منه ومن